المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

طيور عمّان تحلّق منخفضة

قصص قصيرة

الياس فركوح

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الياس فركوح

طيور عمّان تحلّق منخفضة

المؤسّسة العربيّة
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي - بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

جميع الحقوق محفوظة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون . ساقية الجنزير . ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت . ص . ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨١

الإهـــداء

انها حكمة الجبليين سكان داغستان ، والتي لا يتعب رسول حمزاتوف من تثبيتها فيما يكتب :

(لا تخرج الخنجر من غمده دون حاجة اليه ، ولكن اذا انتضيته فاضرب به . اضرب لكي تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة)

الى كل وجوه المجموعة ومن يعيشون حولهم .

الياس

أيــوب . . . يا أيــوب

« من قال ان جنازة الفقير تمرّ دون أن يشعر بها أحد ؟ ! »

افلتت (حبسة) تساؤلها هذا ، واندفعت نحو النافذة المشروخة الزجاج ، تريد أن تولول لتوقظ الجيران من عمق نومهم . تلقاها الزوج المستهلك بصدره حائلاً دونها والنافذة . اصطدم ذقنها بشعره الخشن فشمّت عطن الجلد المدبوغ وما زكمها هذه المرة . ملمس الشعر له مذاق الحزن . . . فتجرّعته (حبسة) حتى غص به حلقها . ففاضت :

ـ أريد أن أصرخ يا (أيوب) أريد أن أصرخ . . .

فضرس (أيوب) ألمه بين فكيّن ناتئين ، وضغطها اليه أكثر :

ـ دون فضائح . . دون فضائح .

. . ورقصت المرئيات خلل دمعة اهتزت في عينيه ، زادها ارتجاجاً انتفاض جسم (حبسة) المندسّ فيه .

عاد الليل هادئاً بارداً ، وسكنت أعصاب الجسدين المنهكين . تحلقّا حول الفراش الملقى في زاوية الغرفة . لم يكن خالياً . وضع (أيوب) يده على البدن المسجّى فسرت اليها بقايا حرارة بائتة . . ثم بردت . « كانون » الفحم يتوهج بجمرات صغيرة . ما كان هنالك من دفء ، والبرد ينفذ الى المكان ويحطّ في البدن الصغير .

* * *

برد هذا الشتاء كالرصاص يخرق العظام . . . وسماء « عمّان » مغلّفة بالرصاصي . لا شمس . . فلا ظل . . فهواء ينسلّ الرجال فيه مطأطئي الرؤ وس . . هم يخفضون رؤ وسهم من البرد المقيم ، ومن قهر اقتحم ذواتهم فشتتّ تماسكها . لزجة ، ثقيلة ، موحلة كبقايا الخضار المتناثرة على أرض السوق . زعقت عربة سوداء كبيرة ومرّت . . فنثرت رشاشا من الطين توزع على وجوه البعض . شتمت الفلاحة صاحبة الثوب المطرّز :

. . . أبو هالعيشة !

ومسحت بكفّها الرطبة لطخة الطين على خدها .

ـ خارجون من هناك ، لنغتسل بالطين هنا ؟!!

وعادت تنادي على خضارها .

يداها ترتبّان اكوام الفجل وخضار الشتاء في الوعاء النحاسي الكبير . ربما للمرة العاشرة منذ الصباح . عيون الرجال الظاهرة في اللثمة الحمراء تمر عنها بتساؤ ل . باردة هذه العيون ، منكسرة ، ترتخي سريعاً كحواف معاطفها المقبلّة لطين السوق اللزج . تسمع صاحبتها الجديدة المقرفصة على يمينها :

ـ من أين يا أختي ؟ .

بنزق تجيب وخصلة شعر تفلت من طرحتها البيضاء :

ـ من البلاد . بيت دجن . . .

ـ وأنا من بيت جبرين . .

تشير الاولى الى المخازن أمامها ، وتقول :

ـ واحد منكم استأجر هذا المخزن .

تنهّدت الثانية :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

ـ غني طبعاً .

ـ صحيح ، وإلاّ لكانت زوجته معنا في السوق .

وأردفت وهي تنظر باتجاهه :

ـ كأنه لم يخسر شيئاً !

الهواء رصاص . الهواء رصاص . والقروش المبتلّة في اليد العارية تسقط كرصاص . تلمسها الفلاحة في كيسها القماشي ، وتخفيه في صدرها . الفلاحة تتذكر وصدرها يضيق . لا تقوى على فهم العالم . كبير وبارد هذا العالم . والفلاحة كانت ترمّلت في غير أوانها . رصاصاً كانت أيامها الاخيرة . يختفي الرجال من « بيت دجن » ويعودون متناقصين . في المرة الخامسة أمسكت بزوجها عند الباب وبكت . لم تقل شيئاً ، ولكنه علّق بندقيته في كتفه وأزاحها :

ـ « يجب أن أذهب . » .

قال . . . وغاب . رجع الرجال وكان هو من المتناقصين . فرغ البيت وصار الرصاص أقوى . زحفت « بيت دجن » الى « نابلس » . . ثم كانت هي مع الذين وصلوا الى عمّان .

لم تر الفلاحة ، في شرودها ، القامة الصغيرة أمامها . كان الصبي واقفاً قبالتها يرتجف . يشدّ الى صدره طيّات الصحف . . يرتجف . رفعت رأسها فطالت قامته بالكامل . ربما حجب جسده للهواء البارد كان سبب تيقّظها . انتشلت نفسها حين رأته نحيلاً ، صامتاً ، يحدّق بها :

ـ ها يا (حمد) ؟ ماذا في الاخبار اليوم ؟ هل سنرجع للبلاد ؟ .

قال بلهجة شبه بدوية :

ـ « الاردن » تقول ان الهدنة قد تفشل . و « النسر » نشرت ان الأعور هو الذي يفاوض[1] .

لمست الفلاحة ان الصبي يتكلم بوهن ، فأرادت التأكد فحثّته :

ـ « الاردن » كلامها بائت ، فلقد أخبرتني بذلك أمس . ولكن من قرأ لك خبر « النسر » ؟ .

أجاب الصبي بتلقائية فجّة دون ان تخفى ارتعاشته عليها :

ـ (أبو بندر) الشامي صاحب الدكان .

وهنا علا صوت بلهجة سورية ، من مخزن في البنايـة المسوّدة :

ـ أيوب . . . يا أيوب . . العمى ! تعال وارفع الربطة الى السدّة .

ظهرت اللهفة على وجه الصبي لدى سماعه اسم أبيه ، وبدأ يتحفز لحركة عليلة .

ـ يا خالة . . لا تنسي ان تبقي لنا ما يزيد من خضارك . أوصاني أبي بذلك .

وانفتل نحو الشارع راكضاً ، نعله مثقل بالطين . . وجسده ينوء بحمله الخفيف .

* * *

« أيوب ، عليك أن تكون جاهزاً دائماً . أيوب ، يجب ان تنظف أمام المحل . أيوب ، أنزل ربطات الجلد من السدة . أيوب ، اذهب لترى ان كانت المصبغة قد جهّزت الفروات . . ايوب . . ايوب . . . » .

وكزّ أيوب على أسنانه متحاملاً وهو ينزل ربطة جلد مدبوغ . رائحته

---

(١) « الاردن » و « النسر » : جريدتان كانتا تصدران في الاردن عام ١٩٤٨ . الاولى اسبوعية والثانية يومية .

نتنة نفاذة ، ولكن عليه ان يصبر . (حبسة) صارت تتـأفف من رائحته . . تتحاشى ان تنام معه .

« ولكنه القرش يا (حبسه) . نطارده فيفزع . نمسك به بين النتن . . فتديرين لي مؤخرتك . رائحتي لا تشجعك لتنـامي على ظهرك ، وتقبليني في دفئك . انها رائحة القرش يا (حبسة) . نكرهها ونركض خلفها . هكذا هي رائحة الضبع . يبولها على ذيله ويلطشنا بها . . فنلهث للحاق به . الى أين ؟ لإسكات وجع (حمد) ومرضه . أطلب من (أبي بندر) قروشاً اضافيه فيتعلل بالحرب . يقول :

ـ انها الحرب يا (أيوب) . كسد حالنا !

ولكن الحرب انتهت وكثرت الناس . صارت نعاج « الرعيان » تملأ سوق الحلال . يأتون بها ويذهبون بصدور عمرت نقوداً . لماذا لم أظل راعياً ؟ أكان لا بد من المدينة والعمل عند هذا الشامي ؟ ولكن الحال لم يكن أفضل وقتها .

ـ الدواء نادر وغالٍ يا (أبا بندر) ، والولد يرتجف ولا ينام .

ـ توكل على الله يا (أيوب) . أفرغ صناديق قماش « الخام » . ورتبّها على الأرفف الفارغة .

« ولكن الله لا يمطر نقوداً ، والطبيب لا يداوي بدونها يا (حبسه) . (حمد) يرتجف ويبيع الحرب في الجرائد ، والحرب تدور به في المدينة .

ـ انها المدينة التي أمرضته يا (أيوب) . . .

ـ لا يا (حبسه) . انها النقود.

ـ لا نريدها . لن نموت .

ـ بل سيسرع موتنا .

* * *

بين الفلاحة ذات الثوب المطرّز في السوق ، و (أيوب) ناتئ الفكين ذي رائحة الجلد المدبوغ . . مسافةمن الودّالسرّي . هي تغبطه على (حمد) الهزيل القافز بين الطين وأخبار الحرب وبينها . وهو يشعر بخجل الرجال لمرأى (الحريم) تعمل في السوق .

ماذا يجمعهما ؟ .

(حمد) الصغير . المنطقة الواحدة . زعيق (أبي بندر) الشامي . غنيّ « بيت جبرين » الذي شغّل فلاحة قريته لتنظف له محله الجديد . خضار آخر النهار تبقيها له ببخس الثمن . الطين . الخوف على (حمد) . الخوف من الغد .

« كأنها الحرب يا (حبسه) .

انتهت الحرب يا (أيوب) . . .

والقرش الفزع ؟ والارتجاف الهاجم يا (حبسه) ؟ .

انها المدينة يا (أيوب) .

فيها (أبو بندر) يا (حبسه) . . وفيها الفلاحة . أتعب بينه وبينها . بين جلده المدبوغ وفرواته النتنة . . . وبين خضار آخر النهار . لا هو يقنع ويكفّ عن التذمر . . . ولا القرش يرضى أن يسالم . أتعب بينهما يا (حبسه) . . . أتعب . وأنت تديرين لي مؤخرتك . أعلم . . . انها الرائحة ، ولكن هل أنزع جلدي حتى أتدفأ بك ؟ .

ـ كف عن قرض حبات (الجميد) يا (أيوب) [٢] .

« وكأنني أسرقه هذا الكافر يا (حبسه) ! لا يعلم أن (الجميد) يصبّرني على خضار الفلاحة » .

---

(٢) الجميد : الحليب المخثّر يملّحونه ويجففونه على شكل اقراص أو كرات صغيرة . . يستعمل بعد تسييله كلبن في الطعام .

ويمرّ (حمد) متثاقلاً رغم نحالة بدنه . كطيف يصيح ان الهدنة قد ثبتت . ضعيف صوته كأنه آتٍ من بعد . يراه (أيوب) ولا يراه . يغيب بين الطين وأجساد الرجال . الهدنة على الابواب . . . و (حمد) يصرخ . (حمد) يصرخ بالهدنة . (حمد) يصرخ وجعه وارتجافه . (أبو بندر) يقول ان حالَه قد كسد . غنيّ « بيت جبرين » منطرح على باب محله الجديد يراقب فلاحة قريته وهي تشطف الأرض . (أيوب) يلاحق ابنه الذاوي في المدينة . ينظر الفلاحة فيبصرها تراقبه بحزن . هلع في عينيها . سماء « عمّان » تمطر برداً ورصاصاً في الافق .

كسر (أيوب) قطعة (الجميد) فنتشت وجنتاه . . . وتحلّب لعابه بالملح .

* * *

كان السيل قد فاض وتخلّعت أبواب البيوت القديمة أمام موجاته . رعد السماء يتفجرّ في الليل . فتواصل افراغها لحمل الغيوم على الأرض ، . تحولت غرفة (أيوب) الى بركة . الى امتداد للسيل الهادر خارج مجراه . . لم تتعب (حبسه) من جرف الماء . أبعدت الفراش من الوسط الى الزاوية وواصلت طردها للطين السائل . يرتجف (حمد) وتتحول سمرته الى صفرة .

في الخارج يُعمل (أيوب) ذراعيه في الطين حتى كتفيه . ينحني ليشقّ للماء مجرى . سيل من السماء . وسيل على الأرض ، و (أيوب) لا يعرف كيف تسللت الكراهية الى قلبه . صار يقذف بالشتائم في وجه الليل والمطر . . .

« لماذا في الليل يا ربّي ؟! » .

هتف (أيوب) :

ـ « أتريده موتا لنا وحدنا ؟! . . . » .

وواصل السيل اكتساحه لجسد (أيوب) مخترقاً بيته مصطدماً بجدرانه . . .

وزعقت (حبسه) .

ـ أيوب . . يا أيوب . . .

فعلى زعيقها في قلبه رجفة ، فانتفض ومن حوله يتحرك ماء ثقيل . تركه ودبّ الى الغرفة فكانت زوجته تنكفئ فوق (حمد) . ومضت شرارة في ذهنه كالخطف . . فأحرقت سواد الليل البارد .

« هل ضاع (حمد) !!! » .

وكان يركع الى جانبه . أنفاس الصغير تتقطع . . . ثم تغيب . حرارة تنسلّ من جبينه . أرقده على الفراش فوجده منقّعاً بالماء . . . جال بعينيه أشياء الغرفة الغرقى . رأى البطّانية مركونة في عتبة النافذة المشروخة الزجاج . لفّه فيها واحتضنه .

لون (حمد) كورق الجرائد القديمة . انه يهذي . بتواتر يخرج الكلمات :

ـ النسر . . . الأعور . . . الهدنة . . . يابا . . . بردان . . .

بروز الفكينّ يحيل وجه (أيوب) جمجمة . ويغتصب الصغير أنفاسه وكوابيس تلاشيه تصطخب :

ـ الاعور . . . يامّا . . . أبو بندر . . . الفلاحة . يامّا . .

. . ينتفض (حمد) ثم يسكن .

* * *

كان (حمد) قد تكفّن بالبطانية الرطبة ، وأرقد فوق الفراش المبلل . ما كان هناك من شيء آخر يضعونه فيه . فكّر (أيوب) بقماش « الخام » عند (أبي بندر) . . . ولكن السيل الهادر يفصل بينه وبين الناحية الاخرى . هناك السوق ، وربطات الجلد المدبوغ ، و (أبو بندر) ، وغنيّ « بيت جبرين » . . . والفلاحة ذات الثوب المطرّز .

كانت آخر ما نطقَ به (حمد) . . . وكان وجهها ، في آخر مرة رآها (أيوب) ، عيوناً تنبع بالهلع .

عمّـان

١٩ كانون ثاني ١٩٨٠

كتاب ـ القصة القصيرة ـ،

المهرجان السنوي الثالث

لرابطة الكتّاب الأردنيين ١٩٨٠

ثـــريّـــا تنتظـــر . .
ثـــريّـــا تحلـــم . . .

سمراء صغيرة الجسم . . واسمها ثريا . شعرها أكرت به بعض الطول ، ولكنه يتهدل بارتخاء متوفز عند معالجته بالهواء الساخن .

في عينيها يسكن الانتظار بارداً ، ربما من طول عيشها له ، وكلماتها قليلة تبتعد عن التحدي أو الترغيب . محايدة قد تبدو في ظاهرها تعطي الآخر القدر الذي يريد من الكياسة . لا هي متحفظة . . . ولا صادَّة . . وجميع الذين عرفوها لم يدللوا في حديثهم عنها على انها سهلة . « ليس في الدنيا امان . . . لذلك . . فأنا لا أطمئن للذين يمرّون ! » .

ومع جانبها الحذر هذا ، إلا أن ثريا ما كانت تعرض عن شبه الصداقات التي تفتح لها . كانت تنتظر . وهي بانتظارها هذا القريب من بصمة قدر دمغت بها على جلدها الأسمر ، كانت تأمل أن يأتي ذات يوم . تحمله الريح ، أو يقوده اليها شارع ما في مدينة ما . . . خرافية أم خشنة كالعادة . ليس هذا بمهم . ولكنه سيأتي .

ما الذي تنتظرينه يا ثريا ؟ .

« هـو الـدفء . طـالـع حسن . رجـل قـوي . . كيس من النقود . . . » .

وما كانت ثريا تتعب من الانتظار . صبرها لا يعرف حدّاً ، وفشلها في احلامها الصغيرة ـ رغم الغصة الدفينة ـ لم يلجم القدرة لديها على الحلم . وكأن الانتظار والحلم طابعها المميز .

« نحن الفقراء لا نملك إلا أن نحلم ! » .

قالت مرة ، وما درت أنها نطقت بشيء كبير . تلعثمت واحمر سمار وجهها عندما قيل لها انها عظيمة لهذا التصريح . بدت صادقة في حيائها وهي تشيح برأسها ناحية اخرى :

« كفى مزاحاً يا عم . أميّة وعظيمة !! » .

عظيماً كان حلم ثريا الأول . ولأنه كذلك احتاجت الى مجهود كبير بقدرة تحملها ، حتى استطاعت اخراجه بكلمات خجلى .

« كنت أريد ان أصبح مغنية . ان اغنّي بالانكليزي . . وتصفّق لي الناس ! » .

وهكذا اثبتت ثريا ، ببساطتها ، ان الفقراء لهم احلامهم المزركشة كالآخرين .

* * *

في وقفتها الطويلة وراء خشبة الحانة الليلية احسّت بالتعب . مالت بثقل جسدها على الساق الأخرى ، ونظرت الى حيث ربضت اصابع يديها على الخشب الاملس اللامع . كل شيء يلمع في المكان . المقاعد المنزوية في العتمة الباهتة . زجاجات الويسكي المختلفة المصفوفة ، خلفها ، على الأرفف . الكؤوس الفارغة المقلوبة بنظام . الاطار المحدد لصورة الكلبين الابيض والاسود امامها . اقراطها الرخيصة التي تخشخش كلما أتت بحركة . حتى وجه الخواجا (متري) المستدير ، وبرأسه الصلعاء ، كان يلمع .

ـ اذهبي وضعي اغنية في الـ « جي بوكس » . ربما يأتون على صوت الضجيج .

قال الخواجا (متري) من زاوية حانته الحقيرة . ولمّا لعلع صوت محمد رشدي من الصندوق (يا مغنّواتي) . . ، كانت ثريا قد عادت الى وقفتها الاولى . ضحك الخواجا بسماحة رجل كبير ، وأشار اليها . :

ـ صبّي لنفسك كأساً على حساب المحل . عيد الميلاد بارد . . والزبائن سيتوافدون .

فعلت ثريا ورشفت من كأسها وهي صامتة .

ـ أتذكرت بلدك ؟ .

. . كان يومئ ناحية الصندوق حيث الاغنية المصرية . هزّت رأسها عدة مرات فخشخشت أقراطها الرخيصة . ارتفع صوته بانتعاش :

ـ آه . . . اذن هو .

لمعت عيناها كبقية الاشياء .

كان ما انتظرته ثريا طويلاً قد أتى . لم تطل التساؤ ل ان كان يطابق أحلامها القديمة أو هو شبيه بالفارس « ابن البلد » الذي يدخل عليها آخر النهار بكيس يطفح بالفاكهة حتى عنقه . ولكنه كان هو . ليس كما الوجه في الحلم . ليس كما الطول في الانتظار . ولكنه ، عند ثريا القادرة على الصبر أكثر ، هو القوي الذي حملته الريح ، وقاده شارع في بيروت اليها .

« جميل أنت ! جميل ! . . . » .

قالت له بعد المضاجعة الاولى ، وهي تنقبّ بعينيها وجهه . وأكملت وقد توسدت صدره :

« تنطق كلمات قوية . لكن كيسك فارغ من النقود ! » .

ثم تساءلت في سرها :

« أهو طالع حسن ؟ » .

وألصقت جسدها العاري الصغير به :

« انك دافئ يا جميلي ! » .

صوت الريح ليلة الميلاد يقتحم الحانة الحقيرة ، فتجرع ثريا ما تبقّى من كأسها . وبين شرودها وتوقع زبون يفرج أسارير الخواجا (متري) ، كان هدير البحر يصخب في اذنيها . ما كان غيرها يسمعه في هذا البعد . ولكن البحر كان قريباً ، البحر كان عند نهاية الشارع العريض . تقطعه ثريا الى الكورنيش . . . ويتلاقيان . .

جاءت ثريا الى بيروت فكان البحر تحتها . عملت ثريا في حانة حقيرة في بيروت ، فكان البحر دليلها الى حيث يقبع العمل . وظفرت ثريا بالحلم ، فحدثها على شرفة (الغلاييني) عن الصيّادين الذين يفجّرون البحر بالديناميت كي يأكلوا .

« لماذا تتحدث عن الموت دائماً . . . يا جميلي !؟ » .

سألته في احدى المرات .

« نحن في بيروت . أتعرف ما هي بيروت ؟ » .

وتهزّ رأسها الصغير كالعصفور المبلل مستنكرة :

« لا . الموت ليس في كل مكان . أنت معي . أنت جميل والموت بعيد » .

ما كانت ثريا لترضى أن تفرّط بجميلها . تحملت خسوف حلمها الأول فاستعاضت عن الغناء بالانكليزية بالوقوف وراء خشبة حانة حقيرة . هضمت تنازلها عن بيروت الثلج ، والتفاح ، ولباس البحر الملّون ، والتألق بثوب براق . . بالسكوت في عتمة ضاجّة بالسكارى وأغانٍ رخيصة . . وعبق قيء حاد . .

والمطر الذي ينهر على البحر يا ثريا ؟ وقوارب الصيّادين المرفوعة فوق رؤ وسهم كالنعوش ؟ والزجل الكبير الاشيب ؟ .

قالت عنه ثريا حين رأت صورته في الجرائد :

« انه يشبه والدي . اقرأ لي اسمه . . . » .

. . ثم أخذت ترتده :

« معروف سعد . . . معروف سعد . . . »[1] .

وبدأت ثريا تكتشف أشياء جديدة ، في بيروت ، بعد أن مات الرجل الذي يشبه والدها .

* * *

صار الرصاص يتجوّل في بيروت وانطفأت شوارعها . والخواجا (متري) بانت عصبيته بعد أن قلت الزبائن . والزبائن كثرت مضايقاتهم لثريا حتى ألحت بالانصراف باكراً .

شقتها الصغيرة لم تعد تضمّها كثيراً كالسابق . و (الروشة) خلت من المصوّرين . . و (الغلاييني) أقفر من متقاعديه وعجائزه .

« لماذا تختار لنا هذا المكان للجلوس فيه ؟ » .

سألته في المرة الثانية .

وضحكت .

« أتقول انهم يتلهّون بلعب الطاولة والنارجيلة . . ولا يلتفتون الينا ؟! » .

ورحل الحلم .

---

(١) معروف سعد : الشخصية الوطنية اللبنانية التي تبنّت مطالب الصيادين في جنوب لبنان ، صيدا وصور ، في وجه احتكار شركة « بروتيين » التي أسسها كميل شمعون لتستفرد بتجارة الصيد على كل الشاطئ اللبناني .

قتل معروف سعد اغتيالا نتيجة موقفه هذا . فحمله الصيادون في قارب عند تشييعه . كانت هذه واحدة من الشرارات التي أشعلت الحرب الاهلية في لبنان .

لم يعد الجميل ، صاحب كيس النقود الفارغ ، الساكن الثاني في الشقة الصغيرة .

دخل الشتاء الثاني وازداد فراش ثريا صقيعاً .

وعادت الى الانتظار .

ترك لها ثلاثة كتب . وصورة تجمعهما مثبّتة في اطار مرآتها . وشجرة ميلاد لم تكتمل زينتها .

شربت ثريا بقية ما في الكأس عندما كان الزبون الاخير يترك الحانة . معدتها تسبب لها بعض الالم . تلتفت الى الخواجا (متري) ، وبصوت نعس :

ـ ملعون هذا الويسكي المغشوش .

تتفجر قهقهة ذي الرأس الأصلع اللامع .

ـ ستسكرين ان كان حقيقياً ، و . . .

تنظر اليه ثريا وألم معدتها يخطّ عرقاً على جبينها .

ـ ونغلق الحانة في أول الليل . ولا نعمل .

ليلة عيد الميلاد . بطاقة منه قبل يومين . شجرة لم يكمل تزيينها في الشقة . ومصابيح كبيرة وسط شجرة في (الحمراء) . . وموسيقى في المدينة .

« ماذا سأفعل بالشجرة الناقصة ؟ .

كيف سأفهم ما تقوله كتبك ؟

هل أحنّط صورتنا ؟ . . . »

دمعة تتجمع في مقلتي ثريا . انها لا تظفر منه بشرح . كلماته قليلة ،

تحسّها قوية ، تحمل الاجابة ولا تحمل . تتذكر اجابته عن اسئلتها :

« اسألي الصيّادين .

ولكن رجلهم مات!

انهم ما زالوا يعدّون الديناميت . » .

حلم ثريا يبتعد ويختفي . وهي تقتنص حضوره المتعجل فتشربه كآخر ما في الغيمة من ماء . أهكذا يتحقق حلم الفقراء يا ثريا ؟ بطيئاً حين يأتي . . . وخاطفاً عندما يزول !؟ .

« ولكنه يترك أثراً . . . » .

تدافع ثريا عن حلمها ، ولكنها تعيد نبش ما تحت صبرها الطويل . تحرق أوراق تفاؤ لها المدعوم بالحلم .

« أهو أثر كالجرح ؟! » .

تخشخش أقراط ثريا وهي تنفض رأسها الصغير قاصدة افاقته . عندما يصيبها الصداع كانت تشدّ جبينها بمنديل يضغطه فيخفّ الألم . تماماً كجندي مصاب في الخطوط البعيدة عن الجبهة .

« والجرح . . . كيف مداواته ؟ » .

تتساءل ثريا .

« بالمزيد من الصبر والانتظار . . . » .

تقول ثريا .

« سأعود الى الحلم اذن . . » .

تقرر ثريا .

« سآتيك بعد الشتاء . » .

تتذكر ثريا .

* * *

هي الريح ما تسمع ثريا صوتها في الخارج . ولكنها ريح مبللة . من شقوق باب الحانة تنزلق رشّات مبعثرة . صوت البحر يصخب في اذنيها . البحر بعيد الا انها تسمعه بين المقاعد . خلفها . داخل الزجاجات المرصوفة على الأرفف . في موسيقى اغاني الـ ـ جي بوكس ـ . تخشخش الاقراط الرخيصة لرأس ثريا عسى أن تستفيق . انها تريد ان تصحو . ان تتأكد من صحوها ، لتبعد كلمات جميلها الغائب عن أذنيها . الخواجا (متري) يشعل سيجاراً غليظاً بين أسنانه . . ويعد النقود . كيس الخواجا (متري) ليس فارغاً . كيس (سانتا كلوز) عند الشجرة الناقصة ملآن . ترك لها داخله ثلاثة كتب لا تعرف أن تقرأها . كانت أمنية ثريا أن تغنّي بالانكليزية . . . وأن تسمع تصفيق الناس . رنّت في أذنيها فرقعة أصابع . رأت أمامها وجهاً يطلب نبيذاً . ثريا قدّمت النبيذ . قال الوجه شيئاً لم تفهمه ثريا فبقيت صامتة .

ـ أقول انها ليلة باردة .

فهمت ثريا ، فخشخشت الاقراط ، فجرع الوجه النبيذ وانفتل بظهره .

عادت ثريا تستبين الاشياء من حولها . الحانةخاوية إلا من الخواجا . كتفاها الصغيران يرتجفان فأخرجت من حقيبتها شالها الصوف . فردته على ظهرها فبدت كعجوز ضئيلة .

« قال انها ليلة باردة ! » .

رددت ثريا ، ثم نظرت صوب الخواجا (متري) . كان لاهياً عنها يعدّ النقود .

ـ أسمعت ما قاله الرجل ؟ .

استوضحت ثريا . نظر اليها باستغراب . كررت ثريا :

ـ الرجل الذي قال انه شتاء قاس وطويل !

ازداد استغراب الخواجا (متري) فتلوّن وجهه بالدهشة . دارت عيناه في أرجاء الحانة الخالية وعادتا لتستقرا عليها . طفرت من عيني ثريا دمعة كوت حلقها .

ـ الرجل الذي كان هنا ورحل . . .

واستدارت نحو الباب حيث كانت الريح والمطر يحرّكانه فيئز في سكون الحانة . . .

سقطت الدمعة على فم ثريا . . .

عمّـان . . .
٣٠ / كانون اول ١٩٧٩

خـــط « دالي » الأحمـــر

« إلى مؤنس وآخرين »

ذهبتَ وجئت وراوحت . انفتلتَ ، وصمت ، ثم تركتها تنخطف لكلمة او للعثمة منا . كانت أصواتنا تسقط حال مغادرتها لشفاهنا . . خجلى . كنا الأحياء والمأخوذين الى الآتي من الاعتصار والكرب . كنا الرفاق . أحسمت المسألة ؟ .

« انظروا الى الكتاب الذي يحمل . لم يحسم مسائله بعد . . » .

. . ونظرنا . لحيته الشقراء ما زالت صغيرة ، وضوء القمر ينغمس في غلاف كتابه . لم يأبه لتعليقاتنا ، بل تمطّى وأسند كوعه على ظهر المتراس . السخونة قابعة في البعيد عنا ، وجمرة السيجارة لا تحتسب خطأً تكتيكياً . الاّ أنك هتفت به : « مستريح أنت كأنك تحاور أحد فنانيك السرياليين . هه ؟! » .

وأطرق متردداً لحظات . حار . تنقلت عيناه بينك وبين الكتاب الذي تركه عند أخمص بندقيته . كنت مسؤول المتراس الخلفي ، والمتراس بعيد بعيد ، وأصوات الساهرين تختلط بأغنية لفيروز يبثها التلفزيون . استجمع نفسه وأجابك :

« يا رفيق . المنطقة آمنة . . والاستنفار احترازي » .

أانفجرت فيه وقتها ، أم فجّرت مكنون صدرك :

« الاستنفار يعني الانضباط . . وأنا أجدك ما زلت تراه خطاً أحمر في لوحة (لدالي) . . » .

وحدجته بنظرة ذات معنى .

.. تخلصت من شحنتك ، وبرهنت له في ذات الوقت على أنك مثقف . عاد، كابتاً غيظه ، الى بندقيته . أمسكها وتأهب في وجه النجوم المحلقة في الصمت . كنا نشاهد ونستمع ، وكان الكتاب عن المدرسة السريالية . . .

* * *

هواء الخريف يصفع سكون المنطقة الغربية . اهتزاز (اللاند) يدفعنا الى ضغط اصابعنا على البنادق كي لا تسقط . السائق يزيد من سرعته هرباً من قذيفة قد تلحق بنا . كان هذا بعد صمتك بساعات . واجهتنا المنطقة بفجر بارد . مسلحان يجتازان الشارع بهرولة . عينا (سليمان) تنغرسان بانكسار في وجهي . ربما يستعيد الآن احدى المعادلات الفلسفية لتساعده على هضم الأمر . أترجرج فينسل صقيع المقعد المعدني الى بدني . لم أفهم شيئاً وقتذاك . كان خط (دالي) الأحمر يحفر داخلي خندقاً من الدهشة المشوبة بالرعب .

(مازن) يلتصق بالسريالي ذي اللحية الشقراء ، وعيناه دائرتا زجاج . وجهه الصارم ، الحاسم دائماً ، انقلب الى شكل متهدم . كانت مبادرته في الأساس . هو الذي اقترحها ، فأحرجنا ، وأخرجنا الى المتاريس الأمامية .

« لنكفّ عن التنظير . ها هي (الشيّاح) . آن لنا أن نحكّ جلدنا هناك » .

ضحك (سليمان) وقال :

ـ تقصد ان نخرج من جلدنا .

ـ لم لا ؟ انها محاولة دؤوبة كما تعلم .

فتدخلت أنت وقلت :

ـ ولكنها ستكون شيئاً آخر .

ـ نعم . ليست الصحيفة ، ولا الاتحاد ، ولا . . .

وأكمل الثالث مقاطعاً ، وهو يمّسد لحيته النابتة ، ناظراً اليك بايحاء :

ـ ولا الانسلاخ على الورق .

تجاهلته ومددت يدك لتقلّب كتب (سليمان) الجامعية . هتف بك مازحاً :

ـ قف . . لا تعبث بلحية المعلم ، فهو القائل : « نقطة الوسط هي الأبعد عن قطبي التهور . . . والجبن » .

. . . وأضفت أنا :

ـ ونتيجتها الأسوأ ملصق أنيق على جدار شعبي . ستصبح مشهوراً :

خرج (مازن) على صرامته وابتسم بلؤم . نظر نحوك وقال :

ـ وربما أيضاً في أزقة « الحمراء » وعلى جدران باراتها . من يدري ؟ ستحسم وقتها قضيتك .

فانفجرت مقهقاً بعصبية . . ثم هدأت . أرخيت رقبتك الى الأسفل ، وبدأت بطي ورقة منشور كان قد احتوى ساندويش أكل نصفه . . » .

* * *

وجهها وبيروت . هي وبيروت وجهان لعملة واحدة . هكذا كنت تقول ، وتضيف :

« والمعدن يحرّق حين يعشق النار . » .

عشقتها حد التحامك بالقضية ، وكتبت في احدى وجدانياتك الخاصة :

(أنت القضية) ، ودفعتني لرؤ يتها .

اقتحمنا المكان وخلفنا طوفان من السماء . لطمتنا أصوات موسيقى ورائحة عطن . استقرت زجاجتا البيرة على الطاولة أمامنا ، في حين كنت تومئ نحوها . كنت محرجاً . عيناها غاطستان في ظلال حمراء ، تحدّث رجلاً لم نر منه إلاّ ظهره العريض . هزت برأسها وابتسمت . هتفت من داخلي : (كذب . كذب .) .

« لذيذة . لذيذة . » تنبهت لك ، فأشرت الى زجاجة البيرة وهي تفرغ في الكأس ، وقلت :

« أفضّل لذيذة على الأمستل . أخف . . » .

سألتك من أين أتت . فقلت من الجنوب . ولماذا هي هنا ؟ .

« لم يعلموها القراءة ، ولا . . . » .

ولكنها ليست بالمهنة التي . . .

« حاولت ان تعمل بيديها فنهشوا بقية الجسد . . » .

تململتُ ساخراً وقلتُ انها قصة مكررة ، فأجبت :

« القانون واحد والوجوه هي التي تتكرر . » .

اقتربتْ منا وجلستْ . رحّبت بي بحرارة ، وقالت انك حدثتها عني كثيراً . لم تكن متكلفة ، وكلماتها كانت بسيطة الى درجة لا تصدق . انبثّ بي الحرج أكثر وخيل اليَّ انك ضحكت لساعات . تعجبت . ولكنك عندما صرت في الخارج ، عاد وجهك الى وقاره .

سرنا صامتين في شوارع (الحمراء) المبللة . كنتُ استرجع ملامح

وجهها علّني اتذكر اين شاهدته من قبل . لا في مكان . قريب من وجوه الأخريات لا شيء يميزه . تساءلت لماذا هي بالذات ، ولم أصل الى جواب . صرنا أمام مقهى (ستراند) . . بضعة رؤوس تتحرك خلف الزجاج . قاربنا نهاية الطوار فقلت لي :

« هنا يبيعون الزهور » .

وأشرت الى الزاوية . فسألتك : لمن ؟ .

فأجبت :

« لمن يقدر أن يشتري » .

فاجأتك :

ـ ولماذا لا تعمل على ايجاد حل لها ؟ .

توقفت ونظرت اليَّ بتمعن . اعتقدتُ انني وضعتك في الزاوية ، فألححت :

ـ قل . لماذا لا تجد لها الحل ؟ .

فواجهتني صارخاً كالملسوع وأنت تدق على صدر سترتك الأنيقة :

« أتريدني أنا أن أجد لها الحل ؟ أنا !! » .

* * *

الانتقال الى (الشيّاح) ، ليلاً ، يتم سيراً على الأقدام . هذا ما فهمناه ، ونحن نتوزع على جانبي الطريق . ضوء العربة يحولها الى هدف مباشر لقذيفة . في البداية صادفتنا نقاط متحركة تحمل أجهزة الالتقاط والارسال . دخلنا جو الحرب . تقدمنا عبر طرق مترية فبدأ الفراغ يحتوينا . رهيب هو الفراغ المعتم في أجواء الحرب هذه . وصلنا طرف الحرش ،

وباتت مقبرة الشهداء وراء ظهورنا مدفونة بين البنايات المطفأة .

« قف » ، ونبتت بندقيتان مع الصرخة خلف جدار (الحرش) . اعطيت لهما كلمة السر فتابعنا . بدأت رائحة الشجر تأخذ معنى مهيجاً :

« اشم الموت وسط هذه الغابة » .

همست للأحد وأنت تلحق بالدليل . ارتطام الجعب وتصاعد الأنفاس شكلا علامة انعطاف نفسي واضحة . لم تعد البندقية في اليد تمنح الاطمئنان كالسابق . صعدت كلمات ذي اللحية الشقراء :

ـ السواد فظيع !

فعاجلته أنت لاهثاً :

« و (دالي) لم يعرفه بكل تأكيد . أليس كذلك ؟ . » .

أشار الدليل بذراعه أن اتبعوني ، فتبعناه ، آخذين منعطفاً على اليمين . هرول رجال الجانب الآخر عابرين الطريق الواغل في المنطقة . اضاءة خفيفة هنا وهناك . ناس البيوت يبزغون لنا بتحيات « العوافي » . اللهجة الجنوبية تطفو مع انتحار رصاصة في جدار . ربما كانت لقنّاص مبتدئ .

« يرحّبون بكم » .

علّق الدليل ، وتخطينا غرف بيت . . بيتين ، ثم بتنا في قلب (الشيّاح) .

* * *

سدود من أكياس الرمل ، عالية ، وواطئة . ليل الشيّاح مشبع برائحة الرجال . في الزوايا . عند مفارق الشوارع . وراء المتاريس الموزعة . (مازن) . وأنا وثالث من أهل المنطقة خلف احداها . كنا

مركوبين بفترة خرس امتدت طويلاً ، او خلتها كذلك . قطعها ثالثنا مستفسراً :

« من أي حزب أنتما ؟ » .

فأجابه (مازن) :

« لسنا من أي حزب أو تنظيم . مستقلان . » .

وطفق الشيّاحي يحدثنا :

« اقصى اليمين شارع أسعد الأسعد . سمعتم عنه بالتأكيد . في المنعطف الأيسر ملّالة للجيش انضمت الينا . على بعد أمتار كنيسة (مار مخايل) . لستما فلسطينيين على ما أعتقد. بعد ثلاث بنايات الشارع الذي ضربت فيه (البوسطة) . عين الرمانة ـ » احتقن وجه (مازن) وتجهم . الشيّاحي استرسل :« في الليل يموت القصف اذ تتعذر الدقة . يتسلى أحدهم فيطلق زخة رصاص . هناك يربض رشّاش (للمرابطين) . . . » .

انفجر (مازن) فيه بنزق :

« لسنا سيّاحاً هنا ! » .

اعتذر الشيّاحي محرجاً :

« لم أقل ذلك ، يا رفيق ، ولم أقصده . . . » .

ثم بعد دقائق من الوجوم المكهرب ، رفع بندقيته ونهض . ابتعد عن المتراس قليلاً .

« احذرا الفجر. عنده تنفتح شهية القذائف والقنّاصين » .

وثنى ركبتيه وهرول محني الظهر بموازاة سد رملي واطئ . دس اصبعه في الجرح المؤلم . جرحنا المؤلم . هكذا وبدون ان يقصد ، ككثير من الأمور عندما تحدث . قلت (لمازن) :

« ولكنه فعلاً لم يقصد » .

فهاج في وجهي :

« كفاك توفيقاً ، ولا تحاول ان تبور . فعلها وانتهى » .

فعلها الشيّاحي وذهب . فعلها هذا (التوما(*)) بأقسى مما نحتمل ، رغم أن المسألة ـ كما بدت لي ـ ، مكشوفة ، ليست بحاجة لإيغال أصبعه كي يصدّق .

* * *

حدّثني (مازن) عنك وعن (سليمان) . قال انك التزمت بصعوبة . ماطلت كثيراً قبل أن تنتظم ، وعزا السبب الى نفورك من أي عائق للذات . لم يكن ذلك جديداً عليَّ .

« احياناً قد يتعارض الخاص مع العام ، والخاص عندي ليس بسيطاً . » .

ولكنك بقيت في الداخل . لم تخرج على العام . سكت وتثقفت . او كما فسّرت لي ذلك مرة :

« لم أبقَ مجمداً . تعبت على نفسي ، وحللت كثيراً من المسائل المعلقة . وبقيت أخرى بلا حل . » .

أزّت رصاصة في جدار بيت خلفنا ، فانكمشنا الى المتراس أكثر .

« ضُرب الباص وسال الدم . اختزلت المسائل وتكثفت بسرعة . تبادلت الالويات امكنتها فانفتلت اليها . » .

وسليمان . ماذا عن (سليمان) ؟ سألت مازن :

(*) توما : احد حواري المسيح الذي رفض تصديق قيامته الا بعد أن يضع اصبعه في جروح جسده .

« كما تراه . الفلسفة عنده مفتاح لكل المدن . يراوح أحياناً ، إلا أن التزامه عنيد . روماتيزم القلب لا يمنعه من التبشير بفجر جديد . هو يكره هذا التعبير . يعده ضرباً من بقايا رومانسية . يفضّل الصيرورة » .

تراكض شبحان بخفة بين الأزقة . اقتربا منا . ناولنا واحدهما رغيفين محشوين ، وهمس الآخر :

« انتبها . أدق فترات الاستنفار . الفجر بعد قليل . قنص وربما تسلل . يعطيكما العافية » .

ومرقا الى آخرين . غبش الجانب المقابل ولعب الهواء بفروع شجرة منتصبة كشاهد . ضربت درفة نافذة حائطها ، فحملقت صوبها . موات . . وغبش . . وسكون .

« ترى كيف يشعر الآن صاحبنا السريالي ؟ ربما يفكر بثورة القرن الماضي . متاريس كومونة باريس . حديثه المفضّل اذا ما نطق . » .

فكرت ، وامتددت اليك :

«لعلك لم تصطدم به في متراسكما هناك . لعلك حسمت مسألتك معه . » .

ونظرت الى الفضاء صوب متراسك ، صار اكثر ضياء وبرداً . بحركة غريزية احتكّ كتفي بـ (مازن) التماساً لدفء . اخدرت أصابعي على معدن البندقية البارد ، وتحركت عيناي تمسح الجانب المقابل . صدرت خرخشة خلفنا فانتبهنا . ماءت قطة ونفرت من وسط كوم قمامة . الجدار مثقوب بمئات الطلقات . القنّاص . عادت عيناي الى الغبش البارد . ثقل انهدَّ على أرض بعيدة فأخفيت رأسي . تفجّر فضاؤك واحترق . اكتسحت موجات الطلقات جانبهم وجنّ الفجر بالقصف . شعرت أن شيئاً ينقذف من داخلي مع تشنّج أصبعي على الزناد .

يزداد جفاف حلقي كلما اقتربت بزحفي نحوك . كنت وحيداً على رمل المتراس الممزق كالمصلوب . وصلتك مع الآخرين . كان بك نفس يصطرع . تحلقنا حولك . وصل السريالي يلهث ، فصاح ديك من بستان مهجور . ارتعشنا . ركعت عند رأسك محاولاً اجتذاب عينيك المشبوحتين الى السماء . حرّكتهما نحوي وملت برقبتك . انبعث خط أحمر من فمك .

« لا تتكلم » .

هتفت بك .

« . . . لم تُحَل جميع المسائل . وهذه حسمت نفسها بنفسها . . . » .

تحشرجت مختنقاً بدمك وصمت . جال وجهي في الأشياء حولي مأخوذاً ، فكانت كلها تشهد بالموت .

عمّـان

٨ نيسان ٧٨

مجلة (الكاتب الفلسطيني)

١٩٧٩

العبـاءات الـتي أضـاءت الصمـت

« إلى الشهيد جهاد حموّ »

(دخل الرجل البلدة مع اكتساح الليل لها ، فأشعلها) .

هكذا اعتاد « الرواة » البدء بالحكاية . والرواة مولعون بتقصي تفاصيل الحدث ، أي حدث ، وتسجيلها . . .

(كان ملفّعاً بكفن غير الذي درج عليه الناس . مخطط بألوان طولية عريضة ، وقصير لم يحط بجسده تماماً اذ برزت صفحتا قدميه العاريتين كشيئين زائدين . كان ككل الذين سبقوه الى هناك ، إلّا في الصمت . صمت الآخرين عادة ما يكون مدروساً . . . وحزنهم أيضاً . اما هذا فكان صمته انفجاراً . مثل عمود ترابي يتلولب آخذاً الصحراء في وجهه . كان صمته لعنة .

تقدمت به الزوبعة عند اخر النهار من طرف البلدة الشرقي . نهار ليس كغيره كان ذاك النهار . لم يكن أحد من أبناء المنطقة يعرف الرجل ، ورغم ذلك التهبت النفوس وتفجرت صدورها.

كمن قدر البلدة كون وقوع المقبرة الجديدة في طرفها الغربي . او كما يحلو للبعض ، ممن في نفوسهم مرض ، أن يقولوا :

ـ اقتراب بلدتنا من مستعمرة الموت الصموت .

أو البعض الآخر ، وهؤلاء هم المرض نفسه :

ـ شاؤ وا أن نتجاور والموت .

ولكنهم حين سئلوا من قبل ضابط المخفر عمّن يقصدون بـ

(شاؤ وا) ، اكتفوا بابتسامة وقحة وأجابوا : (أنت تعرف) .

نعم . نحن نعرف صعاليك بلدتنا وحثالتها . نعرفهم واحداً واحداً . الحاقد منهم والعاطل . المتشرد ونزيل السجون الدائم . ونعرف أيضاً المأجورين المأفونين . نحن نعرف مستقبل الجنين وهو في بطن أمه . نحن نعرف كل شيء . .

***

شقّت امرأة باب بيتها وأرسلت نظراتها الى البعيد ، فاصطدمت بحاجز غبار سوّر المدى الشرقي . فركت وجهها بطرحتها السوداء ، وأعادتها الى رأسها، ونظرت . خرج من الحاجز رتل عربات صحراوية تذبذب كذرات ضياء مشعّ في عينيها . حركته سريعة خرساء عند الافق المقابل ، وانعكاس الشمس على معدنه يرتد ثاقباً جفاف بشرتها المحروقة . تفكرت .

« أتهريبة جديدة ؟! » .

ثم استدركت فاستعادت ما كان رجلها « عقاب » قد قاله الليلة الفائتة : « لم تعد التهريبات المضمونة تثيرهم . انهم يقتفون الآن تهريبات أشياء أخر . . . » .

التفتت خلفها تنشده فألفت الغرفة صامتة . هبطت عليها كآبة كالتي تشعرها حين يحدّثها قلبها بقدوم غم . تذكرت « عقاباً » وهم يحيطون به ويدفعونه الى احدى عرباتهم الصحراوية . هتفت وقتها :

ـ ألم أقل لك ان قلبي يصيب ؟ .

ـ أصاب بالهينٍ يا امرأة . . .

ومن قلب ثورة الأتربة التي أثارتها عجلات العربة ، أتتها بقية جملته الغاضبة بشبه صراخ :

ـ وَطّنية على العظائم بعد اليوم ! ! » .

ضربت كفاً بكف وتنهدت . صار هادئاً وصموتاً بعد خروجه الأخير . وصارت أكثر قلقاً . هو الآن خارج البيت ، يغيب مع المغضوب عليهم ولا يأوي قبل الظلام . تغير آخر بعد الخروج .

ـ « أين يذهب ؟ » .

وخرجت الى ازقة البلدة . الشمس تتوسط غمقة السماء المفتوحة ، والبيوت تتناثر في العراء . ظلها يدب عند قدميها منكمشاً كأنما يحتمي بها . سكون رتيب كالمقبرة الجديدة ولا ناس .

« أين هم ؟ » .

وتسلل الى قلبها هاجس شؤم .

* * *

(نحن نعرف كل شيء . لا تفوتنا فائتة ولا يغيب عن نظرنا « عقاب » وصعاليكه . ولكن أين هو الآن وسط الأهالي في جانب البلدة الشرقي ؟ يا له من نهار أسود . أكان لا بد من دفنه هنا ؟ مات هناك فليدفن هناك) .

اندفعت المرأة الى حلقة نساء تجمعن عند حائط : كن يشرن الى الشرق ويستعذن بالله . نسيت رجلها واستفسرت ، فقالت احداهن :

ـ الجنازة مصلوبة في الشمس منذ الصباح ، هذا لا يجوز.

استغربت المرأة :

ـ ولماذا لا تتحرك ؟ كرامة الميت في دفنه .

تنطحت أخرى :

يقولون انهم منعوها.

ـ من منعها ؟ .

قالت الأولى :

ـ ضابط المخفر .

أخرجت عجوز رأسها من نافذة الحائط ، وأصدرت حشرجة مفادها :

ـ ربما يخشون من تهريبة فيها .

ـ لا أنت الصادقة يا حاجة . فيها شهيد .

ومضت صورة « عقاب » في ذهن المرأة فجأة . هاجمها هاجس الشـؤم ثانية . دقت صدرها بكفها وهتفت : « الصبي حمدان لم أره منذ الصباح » . تحللت أطرافها فاقتعدت الأرض الى جانبهن . دوى في رأسها كلام النسوة مقطّعاً أوصال تخوفها ، رامياً إياها في مزيد من التوقع الجزع .

« يقتفون الآن تهريبات أخر . . . أين هو وأين حمدان ؟ . . . » .

ـ مات في الجنوب ويريدون دفنه هنا . انه غريب .

« يا حيفي عليكما . . . » .

ـ ليس غريباً . ولد هنا ، وطنه هناك ، مات في الجنوب . . .

« ابن عمي تخلى عني يا امرأة . قال ان تهريباتي مشبوهة . عايرني بأصحابي الفقراء . . . » .

ـ استشهد يا حاجة لأنه قاتل الغرباء .

ـ لن يمر قبل الليل .

وعندما زحف الظلام على الصحراء أزت ريح طرية ، فتقدمت الجنازة من الشرق . تحركت البلدة وأضيئت بفوانيس العربات الهائجة توزعت بعساكرها في الأزقة بينما انشطر جزء منها نحو الجنازة .

صرخت المرأة بملء صوتها : « حيفي عليكم رجال . » .

* * *

(. . . وعندما نام الحرس ، تسلل رفاقه في كحل الظلام وسرقوه . أنزلوه من على صليبه وهرّبوه) .

قال هذا كهل عملاق مرّ بالبلدة ذات يوم . طلب ماء . ومضى . أفاد الرواة أنه كان مطارداً من بلاد قريبة بتهمة تهريب الشائعات ، والرواة عندنا لا يكذبون . تقفوا أثره علهم يجدونه ففشلوا . غاب في بطن الرمال كحكايته التي انسلّت في مسام البدن . ضاع هو وحضرت الحكاية ، فنشط الرواة وراء كل كلمة حبلى بمستقبل حكاية جديدة .

* * *

(خطان متضادان التقيا في نقطة فشكّلا دائرة .)

كنا متحسبين من صمت الجنازة ، اذ تعودنا أن الصمت يخفي نقيضه . أما أن يتآلف الصمت والهياج البدوي في دائرة واحدة ، فهذا يعني أن بطن الصحراء ابتدأ يمور . . .) .

أطل النعش من بعيد فدنت بنادق البلدة منه . . كان صامتاً ومكشوفاً ويتقدم ، وكانت البنادق تهتز متوفزة . العساكر يراقبون من بعيد ، والنسوة جمعن أولادهن الى جنبهن . صدورهن تنتفض والشرر يتطاير مع اشعال زيت المشاعل . موج من الغبار تلاطم حول البلدة من بعيد . اشتعلت الجنازة بالمشاعل وقاربت مدخل البلدة . مرّ شبح حذاء الجدران ثم تبعه آخرون . رأس الجنازة اخترق البلدة مع اسوداد الفضاء المحيط . تراقصت الظلال بفعل المشاعل كشياطين خفيفة فوق البيوت . طلائع البنادق التحمت بمقدمة الجنازة . ازدادت صدور النسوة انتفاضاً ، وانتعش توقع فرح لدى البعض . شهية الدم تفور كمرجل بدائي . توتر النهار الثقيل انتقل الى ذروته ، . تداخل خط البنادق بخط الشهيد واندغما ، فتوهجت نقطة الاحتمال حتى الاحمرار المطلق .

بكل الخفة كانت الأشباح الآتية من البلدة قد توزعت في بنية الدائرة المتقدمة . تردد وذهول سيطرا على بعض البنادق . توجس يعصف بجزء من المشيعين . عيونهم تتلاقى على لا اتفاق . ويتقدمون . شيء جديد قديم يتنامى في الصدور ويتفتح . تنبسط حالة راحة رغم انقباض النهار القائظ .

الأرتال تدخل البلدة المحاصرة بالعتمة وعربات العسكر الصحراوية . تتراجع كتلة النسوة الى الوراء بكل التهيب . يبرز شبح على ظهر بيت ويطلق زغرودة طويلة ، ثم يغيب وسط شياطين المشاعل المتراقصة .

ـ انها الحاجة !

تهتف المرأة .

وتجمح بالكتلة حماسة تشعلها كحقل ناشف ، فتنطلق التكبيرات . فجأة ينتضي أحد الأشباح بندقيته كمثل سيف من تحت عباءته ويشهرها . تبرق فوهتها تحت المشاعل ويثور الرصاص . تتجاوب الكتلة بجزئها المسلح فتحرق الفضاء الأسود . تنصهر التكبيرات باكتساح النار بدبيب الأرجل . عباءة تلقى على ظهر فتاة من المشيعين ترتجف . بندقية تنتقل الى أصابع كانت تهرس كفها الفارغة بشوق جارف . العيون المحرورة الدامعة التقت . تجددت خيوط الضياء بينها . تدافعت موجات هواء جديدة وانسلّت في فراغات الكتلة . شهية الدم الفائر انطفأت ، في حين كانت البنادق والمشاعل تكتسح البلدة نحو الغرب .

* * *

أفاقت المرأة على ذراع « حمدان » يهزها . انتفض جزؤها الأعلى واستقام ، وراحت عيناها تكتشفان الأشياء من حولها . وجدت نفسها وحدها و « حمدان » . سمعته خائفاً :

ـ أمّاه ، دوريات الليل اختفت . . . وأبي لم يعد .

انتصبت على قدميها فتعلق الصبي بثوبها . شقت باب البيت وأرسلت نظراتها الى البعيد ، فاصطدمت بحاجز سواد سوّر المدى الشرقي . أندسّ « حمدان » في ثوب أمه ، ونظر الى نفس المدى . التصق بها أكثر وصرخ هلعاً :

ـ أمّاه . انظري . رفّ وطاويط هناك .

فركت وجهها بطرحتها السوداء وأعادتها الى رأسها ، ونظرت ، ومضت من الحاجز لمعة معدن ثم اختفت . ربّتت على رأسه وقالت :

ـ انها ليست وطاويط يا « حمدان » لا تخف .

ثم تنهدت وأضافت :

ـ الوطاويط لا تجرؤ على الخروج إلاّ في الليل .

فتساءل حمدان :

ـ وما هذا ؟ .

رفرفت عباءة سوداء في الشرق المقابل بفعل الريح .

ـ جيش من العقبان يا « حمدان » . من العقبان .

عمّـــان

١٥ حزيـــران ٧٨

جريدة (القاعدة) بيروت

١٩٧٨

طيور عمّـان تحلّق منخفضة

(١) البــدايــة

أفق عمّان لحظة سقوطها في أول الليل . . سحابة نزف هائلة . كومة الجبال الصغيرة تلتهب كأنها ، ان نظرت اليها من بعيد ، جوهرة ازيحت الأتربة للتو عنها . صامتة ، بعيدة ، ولكنها حاضرة اينما يممت وجهك .

قال الأول :

ـ لننطلق .

قالت المرأة :

ـ أين ؟ .

قال الصديق صاحب العربة (الذي لا يربطه بالركاب سوى مجالس التحدث بالثقافة) :

ـ نغزو الجانب الآخر . اعرّفكم عليه .

وانطلقوا .

شوارع عمّان ضيقة كممر متعرج بعد إفطار رمضان . مزدحمة باللحم والوجوه ، والمعدن المتحرك تنزلق عليه انارات الأرصفة والمحال المغلِقة . شعلة استيقاظ ثان تتبرج المدينة بألوانه اثر حمّام عرقها النهاري .

وكانوا في اللجة . ينفلتون بعربتهم بين غابة المعدن المتحرك . . وينطلقون.

وكانوا خمسة . التفت صاحب العربة الى يمينه حيث قبعت « نسرين » وقال موجهاً حديثه للجميع :

ـ هو الاقتحام يا اعزائي .

فأجابته المرأة :

ـ وتقودنا أنت ؟! .

. . وضحكت . خرجت ضحكتها ، رغم بحة ضعف الاوتار أو بسببه ، مرّة تلسع . رد قائلاً :

ـ البورجوازية تقود ، والبقية تتبع يا « نسرين » هذا تاريخ .

عاجلته كمن يرفض تمرير كذبة متقنة .

ـ قد يصدق ذلك لدى القائد . والقائد فرد منسلخ عن طبقته .

ـ وأنا ؟ .

فقال « ابراهيم » من الخلف :

ـ أنت صاحب العربة . أرنا عجائب الجانب الآخر .

خلفّوا (الدوار الثالث)وراءهم وبدأوا يتقدمون موغلين نحو تطرف المنطقة الغربية . الشوارع عريضة مفتوحة لزيادة السرعة . . فزحف مؤشر ساعة العربة الفوسفوري الى الثمانين فالمئة . لعب هواء الليل بوجوههم ، وغمرهم فرح اطفال فاستسلموا للصمت ولنشوة الاكتشاف القادم .

(٢) هويـات . . . وبصمـات

في الليل كانوا يتوغلون ، وفي قلب عمّان الجديدة تحركت عيونهم المكتشفة تجوس المرئيات المضاءة والمطفأة . سكون عميق ينفذ بينهم بعد أن صارت ما يعرفون من عمّان بعيدة .

ـ حتى هواؤهم انقى وانظف !!

قالت « تيتي » باندهاش وخصلة من شعرها ترفّ كراية .

×× (اسمها نفرتيتي . واختصاراً له وبدواعي التدليل تحول الى تيتي .

ملامح وجهها تحمل اختلاط الدم الشركسي ـ أمها ـ مع العربي ـ والدها ـ المتوفى . في احدى الكليات المتوسطة . تحب خطيبها « خلف » ، وعلى يديه تتلقن الفكر السياسي ، وتشترك معه في المواقف المبدئية . نحيلة ، ربما بسبب قلة التغذية ـ بالكاد تسد دنانير امها العصية حاجاتها واخوتها الثلاثة ـ ، ولكن بنطلون (الجينز) ، الذي لا يفارق جسدها ، يناسبها تماماً .) .

تقدموا ببطء في شارع فرعي مظلم . لا نور سوى خطي مصباحي العربة المغروسين في العتمة . صرير حصى الشارع غير المسفلت يكسر هدوء المكان . بدّل صاحب العربة سرعتها فتهادت محفوفة ببيوت انيقة مغبشة . كانوا يتلفتون حولهم بانبهار . انها المرة الاولى التي يرون فيها هذا الجمال في المعمار .

ـ يا لقدرة الهندسة والتخطيط !

همس صاحب العربة وقد اوقفها أمام بيت شعّ بالانوار . فعلقت «نسرين » ، وكأنها تصطاد كلماته لتنبشها في وجهه :

ـ الهندسة كالعلم محايدة . . الى أن تساق كخادمة عند البعض .

×× (في الاربعين من عمرها . ارملة لم تتعلم من زوجها سوى الانجاب ، وهبوط السلم الاجتماعي درجة أو درجتين . وما تبقى ، كقراءة الكتب والمحاججة وتذوق موسيقى بيتهوفن ، وباخ وشوبان ، فكانت من خلاصة بدايتها الذاتية . على وجهها اثر من جمال قديم ما يزال . وفي أصابعها الرقيقة رجفة لم تمنعها من كتابة مقالات نسائية والتكسّب من نشرها .) .

ـ كفّي عن التنظير يا امرأة . الجمال لا يحتمل تجريدك .

احتج صاحب العربة ، وأشار الى ناحية في العتمة الشفيفة .

ـ انظروا وجه السور كيف هو متناسب ، في حجره ، مع امتداد الشرفة .

ضحك « خلف » وغمز بعينه ناحية صاحب العربة ، وقال :

ـ هو مهتمّ بالأسوار وانسجامها مع الشرفات ، عجيب ! كيف ميزت ذلك ونحن لم نر شيئاً في هذه العتمة ؟ .

رد مغتاظاً :

ـ رأيت ذلك في النهار .

ضج « ابراهيم » من الخلف بضحكة مجنونة ، وعلّق ساخراً :

ـ هأ ، هأ . . . تحوّم حول حلمك يا حبيبي !؟ لن تصله . سيمنعونك من الارتقاء .

ـ سأصل رغماً عنهم . سترون .

اجاب صاحب العربة باتراً تعليقاتهم الهازئة .

وفجأة صاح « ابراهيم » :

ـ اهدأوا . ها قد ظهرت الاشباح .

ونظروا . من وراء النافذة العريضة تطاولت رؤوس . اكثر من رأس . كانت كأنها تتفحص العربة بركّابها . تحركت في امكنتها ، ثم تجمعت حول بعضها بأفواه تنفتح وتغلق . . بلا صوت . شيء خفي امتد بين تجمعي الداخل والخارج . . فتم تواصل بغيض . به رعشة الكهرباء الهازّة ، الصادمة .

ران سكون مترفز على ركاب العربة فيما هم ينظرون رؤوس النافذة .

سكون في العربة . ليل وصمت بين العربة . . في الشارع . . . عند السور . . . داخل الحديقة المنارة . . حتى الرؤوس . . صار بالامكان تفحص المنظورات .

قاعة تتوهج بالبياض وفي وسطها تدلت ، من السقف ، ثريا هائلة على شكل عنقود بفروع . باهرة ومعلقة فوق الرؤوس الصغيرة التي تتحرك بخرس . غمغم « ابراهيم » وكأنه مأخوذ بلوثة :

ـ يا الهي ! ليس مثل هذه إلا في الجوامع !!

×× (موظف بسيط في احد البنوك . يقولون له : انت لن تحصل على رتبة يا ابراهيم . حضورك الساخر يستفزهم ، وهم لا يطلبون الا الطاعة .

من نازحي الـ ٦٧ . خرج ووالدته من اريحا ، وعاين الموت في (الخان الأحمر (*)) .

عقده الذي لا يني يفرطه أمام الجميع كلما تحدثوا عن الحرب :

ـ الحرب ! أية حرب ؟ نحن لن نحارب . قالها « أبورقيبة » حين رأى البيوت الفخمة في الضفة . هاجمناه ، وخوّناه يا اخوان . وعندما اتت الحرب هربنا امامها . لم نكن بأفضل منه.) .

نبح كلب عند سور البيت عدة مرات ، ثم ارتقى بقائمتيه الاماميتين البوابة الواطئة . وما كان من « ابراهيم » إلا أن اخرج رأسه من النافذة ، وأصدر أصواتاً كالنباح :

ـ عو . . عو . . . عووووووووو يا ابن الكلب .

. . ثم انخرط بموجة ضحك طويلة وعالية . خاطبه « خلف » ، وقد لمس في الضحك ما هو غير عادي :

(*): الخان الأحمر : موقع عسكري احترق في حرب حزيران ، في الغور الغربي .

ـ توقف .ـ هذا ليس بضحك . انه نواح .

ونظر اليه . كانت عينا « ابراهيم » نبعي دمع يسيلان ويتجمعان في ضمور وجهه . ارتجفت عضلة في فم « خلف » ، وضغط بأصابعه كتف « تيتي » .

× × (اسمر بدوي من (المفرق(*)) . اتزانه وتحفظه المصاغان صياغة يدلان على كبر في السن هو دونه . في وجهه قساوة الصحراء وجفافها، خلافاً لخطيبته المنبثة ، بمفرداتها المدينية، عن طراوة . وكذا قسماتها الناعمة . مشلوح في بقعة منسية جففتها شمس الجنوب . داخل غرفة من قصدير علق على بابها يافطة تقول : « شؤون جمركية . » .

ـ تجمركون ماذا ؟ .

سأله ابراهيم مرة بسخريته الهادفة . فأجابه محاولاً كسر التحفظ المتأصل فيه :

ـ الريح ، والتراب ، والسجائر المهربة .

ـ اذن فأنتم تعملون . باركّكم الله . ولكن ماذا عن الكتب الممنوعة ؟

ـ اقرأها .

ـ حذار يا صديقي . سيتهمونك بتثوير المهربين .

هدر محرك العربة بعد ان اهتاج الكلب وكاد أن يقطع سلسلته الحديدية . وما ان شارفوا على اجتياز حدود البيت المشعّ حتى ارتطمت عجلات العربة بشيء صلب واهتزت .

ـ ما هذا ؟ .

(*) المفرق : بلدة صحراوية ، في شمال شرق الاردن .

هتفت الخطيبة . فقال صاحب العربة كالعارف واثقاً :

ـ مطبات ملاّك بيوت الحي .

ـ مطبات خاصة في شارع عام !

تساءل الموظف ، ونظره يودع الاشعاع الأبيض النظيف . . وهو ينأى ويغوص في عتمة هادئة هدوء مقبرة .

(٣) على مشارف « المندلون »

في ليل عمّان كانوا يغوصون . وفي نفوسهم كانت عمّان تحفر علاماتها الجديدة بأظافر من صلب . كثرت المطبات الخاصة ، فخشي صاحب العربة على عربته ، إلا أنه قال :

ـ دقيقة وترون ما يذهلكم .

احتجّت المرأة :

ـ رأينا ما يكفي . نحن لسنا مازوكيين . وأنت ، أتراك ساديّ ؟ .

تجاهل ما قالته ، وقرر ان يذهب حتى نهاية الشوط .

« هو الدمّل الذي يجب تفجيره هذه الليلة » .

تمتم دون أن يسمعه أحد .

كانت المنطقة مفروشة أمامهم بكل عريها المطفئ ، إلا من بؤر مشعّة هنا وهناك . على يسار الشارع ، في البعيد المعتم ، برزت مئذنة مضاءة بالأخضر . وتحتهم على بعد مئات الأمتار ، طفت في السماء السوداء كلمة حمراء بأحرف لاتينية : (مندلون) .

وما هذا المندلون ؟ .

سأل الموظف وقد تراجعت نبرة السخرية من صوته :

ـ مكان عام . مطعم أو نادٍ .

ـ عام ! انا لم اسمع به من قبل . يبدو انه خاص يا صديقي . هل دخلته ؟ .

اجاب صاحب العربية :

ـ حتى الآن لا . سأدخله ذات يوم .

. . . وأوقف العربة .

تنبّه الجميع الى مبنى غريب يركن بين اكوام من الحجارة وصناديق فولاذ ضخمة . فتح باب العربة فاعتلت وجوههم ظلال زادت من غرابتها . اضاء كشافيْ عربته المصوبينْ على المبنى ، وخرج سائراً الى امام . نزلوا جميعاً ولحقوا به . توقف فتوقفوا ينظرون بحيرة . كان المبنى شامخاً امامهم . يتصاعد مرتفعاً ، في الظلام ، بجدار مائل على اليمين ، حتى يصل سطح المدخل . وأسفل المدخل توالت درجات متتالية عديدة ثم اختفت في عتمة الداخل .

ـ ما هذا ؟ .

سألت الخطيبة . قال البدوي .

ـ نصب . .

ـ لا بل قصر .

اعترضت المرأة . فأفتى الموظف :

ـ انها قلعة .ألا ترون الطّلاقات الصغيرة في الأعلى؟ مبنى ضخم كهذا لا يمكن إلا أن يكون قلعة .

ظلالهم على واجهة المبنى عملاقة تتطاول على نحو غريب . تحرك صاحب العربة قائلاً :

اتبعوني لتروا .

وما ان خطوا قليلاً حتى برز لهم رجل وفي يده مصباح يدوي . كان الحارس . انتحى به صاحب العربة جانباً ، ثم اشار لهم ان يدخلوا . . . فدخلوا .

سلالم اسمنتية رفيعة تؤدي الى طابق علوي بزوايا حادة وضيقة . اكثر من شرفة داخلية تطل من عل على اسفل . في الاسفل حوض مزّنر برخام ، اعتلته الأتربة ومسحوق الاسمنت ، يؤدي الى دهليز ضيق يصل حتى اسفل المبنى . كرات الكهرباء النائسة المتفرقة تضفي على المكان رهبة من نوع خاص .

ـ ما هذا ؟ بيت وليس بالبيت ؟ .

قال احدهم :

ـ بل هو بيت غريب . ولكن لماذا كل هذه الضخامة ؟ .

ـ ليس الضخامة فقط . انظروا التسليح في القواطع الداخلية . انه بيت كالقلعة .

اطل الموظف على المدى المقابل خلال احدى الطلاّقات الضيقة ، وهتف :

ـ تعالوا . يستطيع الناظر من هنا رؤ ية حتى حركة فأر بين الحجارة .

وتجمعوا كلهم عند احدى الطلاّقات . عمّان تكشف عن احدى جوانبها المرتعشة بإنارات متراقصة وسط الحلكة . اقعى الموظف امام الطلاّقة فارداً ذراعه اليسرى ، ثانياً اليمنى ، في حركة تصويب لثوان . . ثم .

ـ طاخ . . طاخ . . بوم . . زن . . انتبهوا للقذائف القادمة . اهرعوا الى الطلاقات الأخرى . انه هجوم . يهاجمون عقر دارنا !؟ .

وانفجروا في ضحكات عالية تجاوب معها فراغ المبنى الخاوي . هدأوا قليلاً ، وكأن اللعبة استهوتهم . . توزعوا الى فريقين . انتشروا خلال الظلال بين السلالم والزوايا . علت صرخة البدوي : هجووووم . وبعدها تتالت الاصوات : طاخ . . زن . . بوم . . . بررر . اطلق قذيفة الهاون . . هيا . أخ . أصابتني شظية . اختبئ يا « ابراهيم » . ها هي « نسرين » توجه بندقيتها نحوك . « تيتي » يا خائنة . اكتشفتك . انت في الخندق الآخر ! سهل رشوة المتذبذبين . لا . البدوي لا يخون . البدوي أصيل عند كلمته . « ابراهيم » احترس . انهم يطبقون عليك من طرفي النهر . انزع الى الصحراء فهي كفيلة بحمايتك . لا بأس . مكانك آمن الآن في الأزقة الموحلة . آي . طعنت يا « نسرين » . لا انها « تيتي » عاضدي » « ابراهيم » يا « تيتي » . وأنت يا « نسرين » اسرعي الى خط الدفاع الثاني . طاخ . . . زحفاً ازحفوا . . زن . . . بوم . . . .

اختلطت الادوار واندغم اللاعبون . . تارة مدافعون وتارة مهاجمون . مرة اصدقاء وأخرى اعداء . في ركن براية حمراء . . في زاوية ببيرق أسود . خوارج وأمويون . قرامطة وعباسيون . مستعمِرون ومستعمَرون . مضطهِدون ومضطهَدون ، أغنياء وفقراء . صهاينة وعرب . عرب وعرب .

صاروا يتدافعون الى الطابق الأرضي . تعثّر البدوي عند عتبة ما ، فترنح وهوى على درجات المدخل . هرعت خطيبته صارخة :

ـ لست خائنة ولا متذبذبة .

توارت المرأة خلف حوض اسمنتي ، وبدأت بإطلاق النار على الموظف المختبئ في ظل احدى الصناديق الفولاذية الضخمة . ثم فجأة علت صرخة الخطيبة :

ـ كفى . لقد أصيب « خلف » .

كانت نبرتها جادة هذه المرة . توقف الموظف والمرأة وهرعا الى حيث تكوّم جسد البدوي على الدرج . يداه تحتضنان ركبته الجريحة ، وقد تمزق بنطاله . أفلت ضحكة عصبية خلال ألمه :

ـ لا شي ء . جرح بسيط . هل انتهت المعركة ؟ .

ابتسمت المرأة وقالت وقد انحنت على الركبة :

ـ انتهت ولم تبدأ بعد . كلنا بخير . كلنا خندق واحد .

وفجأة برز صاحب العربة ، وقد اخترقه احد الكشّافين ، وصاح :

ـ وأنا ؟ أين موقعي بينكم ؟ مع الغالبين . . أم المغلوبين ؟ .

نهض الموظف من مكانه ، وقد استرعى انتباهه حفيف هامس في السماء . نظر الى أعلى فتبين، بصعوبة ، سرب اجنحة خفيفة تحلّق بانخفاض صوب عمّان المرتعشة في الليل .

اقترب صاحب العربة اكثر من الدرجات ، وكرر سؤاله بصخب مفتعل :

ـ وأنا ؟

وردّ الموظف ، ولمّا يزل يراقب عبور الاجنحة ، ومسافة تفصل بينهما :

ـ ألم أقل لك ؟ أنت صاحب العربة .

عمّـــان

٢ تشرين ثاني ٧٩

موت « مطيع عبد الواحد »

مات « مطيع عبد الواحد » !

لا أحد يعرف « مطيع عبد الواحد » إلّا مطيعاً نفسه

ولكن ، أحقاً كان يعرف نفسه ؟

لنرجئ الاجابة عن هذا السؤال ، ولنحاول معاً سبر هذه الهوية الغريبة . أقلت (غريبة) ؟ لا . ان « مطيع عبد الواحد » معروف لدى عمّان (ساحة العمال اليوميين) كواحد من شجراتها أو عامود من اعمدة إنارتها . .ولكنه ما كان، خارجها، لافتاً للانتباه. . . وكذلك ما كان يستنير بتفرعات المدينة ليهتدي الى هدف يريده . أي هدف . « فمطيع عبد الواحد » ليس من الذين تؤرقهم الأهداف التي تؤرقنا . حتى الصغيرة منها كان يراها « مطيع » أكبر من أن يجرؤ على الحلم بها .

أنقول ان « مطيع عبد الواحد » لم يكن طموحاً ؟ .

كلا ، وإلّا سنكون مخطئين ان تعجلّنا هذا الاستنتاج . ولكنه كان يقيس هدفه بمدى ما يعطيه العالم من فرص . أو ، كما اعتاد هو نفسه ان يقول :

« ـ الدنيا حظوظ . فتش عن حظك ولا تطمع !! » .

. وهكذا تتكشف عن شخصية « مطيع عبد الواحد » زاوية قد

تساعدنا على فهمه اكثر . تماماً كما ستتكشف أجزاء من جثته بعد ان يذوب الثلج .

اذن ، فإن « مطيع عبد الواحد » كان ـ على حد تعبير المثقفين ـ واقعياً لا يأخذ من العالم الجزء الأكبر من قالب الزبدة . مقدار لعقة واحدة على رأس سكين . . تكفي . ولكن . . أين هي هذه اللعقة ؟ السكين موجودة ، أما لعقة الزبدة . . .

* * *

لم يكن « مطيع عبد الواحد » يسافر كثيراً . ليس لأنه لم يكن مغرماً به ، فهو لم يغادر قريته (ارجلات) في ريف مصر إلّا للضرورة القصوى . فكيف يحكم على السفر ؟ .

وهكذا ضجّ صدر « مطيع » بخليط من التوقعات الغامضة ، والخشية ، ورهبة التعرف الاولى حين اصطف في طابور الشغيّلة ، كان ذلك قبل سنة في مطار القاهرة ، و « مطيع » واحد من ثلاثين يمسك بجواز سفره . . وينتظر . يدور عليهم المقاول متفقداً ،يحصيهم من جديد كلما رددت القاعة الصوت الانثوي :

« ـ الرجاء من ركاب مصر للطيران المغادرين الى عمّان . . . التوجه الى الباب رقم ٣ » .

وهبط « مطيع عبد الواحد » في عمّان . جلابيته جديدة نظيفة ، وغطاء رأسه اللبادي يخفي وشم العصفور على صدغه ، وحقيبة اليد الجلدية تتأرجح خفيفة على كتفه . كل شيء في عيني « مطيع » غريب وله مفاجأة النظرة الاولى . هو غريب في عجقة الناس والعربات . ولهذا اندسّ في تجمع أهل بلده . . لا بل التصق بهم مستشعراً حماية ما في لغطهم المرتفع .

وعمل « مطيع عبد الواحد » كالآخرين ومعهم . من ورشة بناء في

عمّان ، الى مشروع مجارٍ في الزرقاء . انتقل من مناجم (الحسا) الى مخيمات الطرق الخارجية . نام في العراء وتعرف على الرغيف الخالي من السوس . وما كان يتأفف أو يشكو ، بل يكرر قبل ان يغفو :

« ـ الحمد لله . لقمة نظيفة بعرق الجبين ! » .

. . ولكن ، هل بالخبز وحده يحيا الانسان ؟ .

لم يكن هذا السؤال يخطر على بال « مطيع عبد الواحد » اذ لا سبب لأن يورد في ذهنه اصلاً . « فمطيع عبد الواحد » ملتصق بصفات اسمه كأنه ولد ليحمله شكلاً ومضموناً . فهو وحيد بلا زوجة او بنين . قارب عمره على الخامسة والاربعين ، فما عادت المرأة تقتحم خياله بعد ان برد . اكتفى بأمه تجلب الماء من « الترعة » ، تغسل له جلابيته الوحيدة ، وتشاركه وجبة « المش »[1] ، بزيت القطن عند تيسّر الحال . وإلاّ « فالمش » الناشف كافٍ .

وماتت أم « مطيع عبد الواحد » . افتقدها لفترة قصيرة ، ثم ما لبث ان اعتاد وحدته . حاجاته قليلة ومحدودة . . وليس صعباً عليه كرجل أن يتصدّى لها . أما « المش » ورغيف السوس . . فليس لمثل « مطيع » ان يعاند أو ينتفض ان خلت اليد من ثمنها .

وجاء ما صار يكثر « مطيع عبد الواحد » من سماعه . يقولون عنه في (البندر) انه الانفتاح . . ولكن نافذة « المش والرغيف » ازدادت ضيقاً . وعاد المجندون من الجبهة . صارت النافذة تضيق أكثر . . وصارت « أرجلات » أصغر من ان تحتمل جوع « مطيع عبد الواحد » . . . . ولكن ، هل بالخبز وحده يحيا الانسان ؟ .

ويصرخ ، « مطيع » :

---

(١) المش : الجبنة البيضاء العفنة .

« ـ يا ناس ! حتى الخبز ! حتى الخبز ! » .

* * *

عندما قيل « لمطيع عبد الواحد » قبل أن يسافر :

« ـ الى أين ؟ » .

قال :

« ـ بلاد الله واسعة . وأنا لا أطالب بالكثير . » .

ولكن حتى القليل ما كان إلّا بالكاد يحصل عليه .

« مطيع عبد الواحد » في عمّان . تنفسه يتعسّر ولكنه يأخذه بالقسر من هواء الليل الثلجي . . في الشارع الخلفي لسينما (الحمراء) . يده في جيبه ، وبين أصابعه (روشتة) الطبيب . يدخل الصيدلية ويناول الرجل الورقة دون كلام . يتحرك الهواء بحشرجة في صدره . الدفء في المكان النظيف اللامع يريح « مطيع عبد الواحد » . ينشله الرجل من راحته بجملة أبرد من الشارع في الخارج :

« ـ هذه ثلاثة أدوية ! » .

بتلجلج غير المصدق لما سمع ، خرجت كلمات « مطيع » :

« ـ لماذا ؟! . . ثم برجاء :

« ـ ألا يكفي واحد ؟ » .

علق الرجل ابتسامة من يعرف الخفايا على فمه ، وقال :

« ـ لا . أليست هذه نتيجة الحشيش و « الجوزة » ؟!

لم يجب « مطيع » بأنها ربما كانت البلهارسيا ، فهو ليس بطبيب حتى يحكم ، ولكنه سارع الى القول خائفاً :

« الله بيني وبينه ! أنا لا أدخّن حتى السجائر ! » .

صار « مطيع عبد الواحد » يعرف قيمة النقود ، ويعرف أيضاً أن الدواء الشافي لم يصنع لأمثاله . . لا في بلده ولا في هذا البلد الغريب . فتوجه للرجل حاسماً المسألة بالتي هي أجدى لحالته ، هابطاً بذراعيه الى جنبه :

ـ « ـأعطني حبوب أسبرين يا عم ، وعلى الله الاتكال » .

ثنى ورقة الطبيب ، وضعها في جيبه وعلبة الاسبرين . . وغادر الصيدلية . وقبل أن يستقبل وجهه رذاذ السماء القاسي ، تراقصت لوحة التقويم المعلقة على الباب . كان عليها صورة طفل عارٍ ومكتنز . . وفي أسفلها التاريخ : ١ آذار ١٩٨٠ .

* * *

ماذا كان ينتظر « مطيع عبد الواحد » في هذه الليلة الثلجية ؟ .

شيئان : طريق طويل من قلب المدينة يقطع بعضها بالباص . . والباقي يكمله سيراً على قدميه . والثاني . . زميله في ورشة البناء المتكومة على تل في الضواحي . سرى في نفس « مطيع » تيار فرح حين تذكر الورشة . لا بد ان « فرحان » قد هيأ العشاء الآن . لقد وعده بصنع صحن كبير من الحمص . . وعلى « مطيع » صحن الفول .

« وهكذا نثبت من الأحذق يا « مطيع » . الفول لك يا مصري . . والحمص لي أنا الشاميّ ، وسنرى كيف يكون مع زيت الزيتون » !!

وارتسمت على وجه « مطيع » علامة الفرح . عليه أن يسرع اذن.. فالثلج الخفيف بدأ يهمي ، ولم يشتر علبة الفول وأرغفة الخبز بعد .

* * *

ليل الضواحي في عمّان مبرقش بأنوار فقيرة تنوس . ولكنه الآن خالٍ إلاّ من البياض الهابط على رأس « مطيع عبد الواحد » . سعادة كبرى كانت تعصف به . ها هو اليوم يشاهد الثلج لأول مرة في حياته الطويلة . ثلج . ثلج حقيقي يا « مطيع عبد الواحد ». عليك أن تتحمل لتخبرهم في « ارجلات » كيف هو الثلج . الله يا « مطيع » ، انه ابيض كالقطن . نهارك أبيض كالقشطة إن شاءالله . وزاد « مطيع » من سرعة خطواته .

التل ما يزال بعيداً ، والثلج تحوّل الى عصف . بارداً صامتاً ، ويلتف من حول « مطيع عبد الواحد » كالزوبعة . يعوي في أذنيه كقطيع ذئاب . لم يخف « مطيع » ولكنه بات يخشى الظلام والطرق المتوارية في هذا البياض الهاجم . اختفت الأنوار ولم تعد جفونه تقوى على احتمال الحبات المتسارعة . عاد الألم ينخز صدره . توقف ليستريح بعض الوقت . ولكن الألم زاد . حذاؤه يطأ على الحبات المتعاظمة فيصير المداس زلقاً لا يساعد على حفظ التوازن .

ليس هذا بثلج يا « مطيع عبد الواحد » ! وبدأ الخوف يتسرب الى داخله كلعنة . انحنى ليلتقط كيس الورق المقوى فألفاه داخل حفرة ماء مثلج . انتشل علبة الفول والأرغفة وضمهم الى داخل سترته . . . ومضى . « فرحان » ينتظر الآن يا « مطيع » فأسرع . أسرع والاّ . . .

استحال العصف الى موجات متتابعة . . . فلم يعد الثلج في عيني « مطيع » أبيض . صار رصاصياً . . أحمر . . رصاصاً ينفذ الى بؤر الألم فيشدّه الى مكانه . . يا الهي أنا لا أقوى على السير ، والورشة ضاعت أو بعيدة . زاد الألم فانجذبت ركبتا « مطيع عبد الواحد » الى الأرض . آخ ما أفظع الألم وما أشد الصقيع . « ارجلات » بعيدة بعيدة يا « مطيع » .

الموجات الثلجية تكتسح « مطيع » وهو على ركبتيه قد كبا . تجذبه الى قاعها الأبيض . ظهره يتقوس كحدبة . . وجبينه يهوي على قشرة الثلج المغطية للأرض . . ثلج على الأرض . . ثلج من حول « مطيع » . . ثلج

يعبئ الهواء . . ثلج يغزو الفتحات في ثوب الجسد . . ولا سماء بنجوم .

* * *

« فرحان » انتظر كثيراً . انزوى في ركن غرفة متوارية من الورشة ، وأشعل من خشب الطوبار ناراً . لم يأكل . كان ينتظر « مطيع عبد الواحد » ليثبت أنه الأحذق في صنع الحمص . لم يأت « مطيع » . . ولم يأكل « فرحان » . ظل الصحن غير ممسوس ، وتجلّد زيت الزيتون .

* * *

تلك الليلة من تاريخ عمّان كانت بيضاء . بيضاء كالقطن . بيضاء كوشح الأثاث في بيت مهجور . بيضاء ككفن ، ونواح الأرض والسماء غطّى الكون كله .

تلك الليلة قال مذيع التلفزيون ، وصورته تتراقص كثيراً ، ان الموجة الثلجية ستستمر طوال الليل ، وخاصة في مناطق الجبال العالية . لم يرسم المذيع ابتسامة عند اذاعته للنشرة .

* * *

« مطيع عبد الواحد » لم يبرح نقطة كبوته . ظل مكانه نهباً لهجمات الثلج العاصف . زاد ألمه أكثر . . ولكنه ما كان باستطاعته التمييز بينه وبين لوعة عدم الوصول الى « فرحان » . كان مرهقاً حتى العظم . ليس عظم الركبتين فحسب ، بل العظام كلها . وما عاد من ضرورة للحفر . . أو النكث . لذلك فقد استراح الجسد بكل امتداده . افترش الثلج . . وتغطّى بالثلج . . وأسلم أمره للثلج .

شيء واحد فقط لم يغادر « مطيع عبد الواحد » ، حتى وان كان ينشر

جناحيه للعاصِفة . العصفور الموشوم على الصدغ البارد . ربما لأنه كان مقيداً بغطاء الرأس اللبادي . . أو لأن السماء كانت خالية من النجوم .

وعندما تتوقف الموجة ، وتبزغ الشمس لتذيب الثلج ، وتظهر جثة « مطيع عبد الواحد » ، ستنشر الصحف في زاوية من صفحاتها الداخلية :

(عثر على جثة مواطن مصري .

وجد معه : علبة فول . . خمسة أرغفة مفتتة . . ورقة طبيب بتعيين ثلاثة أنواع من الأدوية . . . وبضعة حبوب أسبرين !) .

. . . ولكن الأمر الذي لن تنشره الصحيفة ، ولن يستطيع أحد غير « مطيع عبد الواحد » اضافته ، هو :

هل قال ، قبل أن يلفظ آخر انفاسه ، ان الدنيا حظوظ ، وانه لم يطالب بالكثير ؟!!

عمّـــان

٤ آذار ١٩٨٠

جريدة (الرأي) عَمّان

١٩٨٠

اللعبـــة

للأرض رائحة صابون رخيص ، والمساحة مسطح من الاسمنت غير المستوي يمتد ضيقاً ـ لا يخلو من حفر قديمة طفحت بماء الغسيل ـ بين شجرتين عتيقتين وجدار بيت بعمرهما . تهبّ نسمة صباحية تهزّ الحبل فتقطر الملابس المنشورة رذاذاً من الماء . عيناه تتابعان تكوّن القطرة على قماش كلح لونه . . ترقب تجمعها عند طرفه . . تمكث قليلاً حيث تمتص شعاعاً من الشمس التصق بها . . ثم تهوي . تنفرش على الاسمنت الأملس وتضيع . يزفر الطفل ويعود ليتابع اخرى .

للسماء لون تشرّب الزرقة فضاعت في رحابة المدى الهاطل من حول عمّان . صباح خالٍ من زعيق أمه ، والحوش ملقى تحت الشمس مستسلماً لكسله في طرف تجمع بيوت آيلةللسقوط . منذراً ساكنوها بالاخلاء . بين الحين والآخر يتمادى هدير آلية « للأشغال العامة » فيخرق حرمة المكان . تسقط قطرة جديدة على الاسمنت الاملس . لا يعود الطفل لمتابعة اخرى . عاف اللعبة وملّها ، وضجّت في صدره رغبة بفعل شيء آخر .

(عزيزي المستمع . صباح الخير . الاذاعة في خدمتك . . . .) .

ينتفض بمزيج من اندهاش وغبطة ويلتفت صوب الباب الآخر . يحدّث نفسه :

« . زكيّة موجودة ؟! » .

اصابع قدميه الحافيتين تتلمّسان الأرضية الاسمنتية نحو بابها .

وجيب قلبه يهزّ جسده الصغير فيعرق . يأخذه مدّ من التصوّر الراغب كحلم شفاف . طابور من بضعة نملات سوداء يتسلق عري ساقه .

« ـ ربما تأتي أمي فتضربني . تقول انها امرأة سيئة تؤذي الصغار . » .

كان متردداً في طرق بابها . خوفه من أن تبصره امه داخل دارها يجمّده في مكانه . . وشوقه لكسر الملل عبر لعبتها اللذيذة يدفعه للمجازفة .

« ـ ليست سيئة . . زكيّة . تحبني وتعطيني ما أحب من الحلوى . كما انها تخرج من دارها لتحميني عندما تضربني امي . وعندما نكون وحدنا تلاعبني لعبة الأم وابنها . سرنا الكبير. . . . » .

(عزيزي المستمع . طوبى للصحو الذي يقتحم النهار بعزيمة الشمس . طوبى للعيون التي طردت النوم من على أجفانها . طوبى للجيل الذي يبني المستقبل بعرق السواعد و . . .)

. . الشجاعة تتقدم به لصق الباب المتآكل من أسفل . حواسه تستنفر بكامل طاقتها فيتنبه الى دبيب النمل على فخذه العاري . يمرّر يده مزيحاً الطابور الصاعد ويدق الباب ، فيأخذ خط النمل الطالع من شق العتبة اتجاهاً آخر :

ـ من ؟

بلع ريقه مرطباً حلقه قبل ان يقول بصوت مخنوق :

ـ أنا .

فتحت له الباب ونظرت في وجهه بعينين مجهدتين . تصلّب في أرضه .

ـ ماذا تريد ؟ .

لم يحر جواباً . اغتصبت ابتسامة وقالت :

ـ ادخل . أين أمك ؟.

عاد صوتها يحمل ما اعتاده من ترحيب به وتأهيل بطلتّه ، فاطمأنّ قليلاً ودلف الى الدار بخطى فيها بعض التردد . وحين وصل الى وسط الغرفة قال رافعاً صوته ليعلو على اغنية المذياع :

ـ ذهبت الى السوق .

همهمت بينما كانت ذراعاها العاريتان تترجرجان وهي تشطف وجهها بماء الصنبور النحاسي العتيق ، وقالت بتقطع يتوالى مع تناثر الماء :

ـ محظوظة أمك . تجد عملاً على الأقل .

لم يفهم شيئاً ولم يحاول ، اذ انها ليست المرة الاولى التي تخاطبه بكلمات لا يجد لها تفسيراً .تلهّى بأن بحث بعينيه عن المنشفة وناولها اياها . اخذتها منه وقرصته في خده قائلةً :

ـ أمّـور

ثم غطّت بها وجهها وأخذت بدعكه . طال دعكها ثم توقفت فجأة . . وتنهدت . خرجت التنهيدة من خلف المنشفة مكبوتة طويلة . حدّق بها . كان وجهها متورداً ليس كالعادة . . وخطان لامعان ينزلقان من تحت العينين ليتجمعا على استدارة الذقن .

لبكاء المرأة بصمة وجوم على وجه الطفل وارتباك . ولوجوم الطفل وارتباكه لهفة واندفاع في جسد المرأة لتنحني عليه وتقبّله . عدوى الدموع ينتقل الى عيني الطفل فينكّس رأسه ويبدأ كتفاه النحيلان بالاهتزاز . تخطفه اليها بحب وكأنها تخشى عليه الدموع تحرق بشرته . . تمسح وجهه بكفها الرطبة المغسولة وتداريه عند كتفها العريض . تحاول تخليصه من حالة اللحظة هذه . تسأله :

ـ ماذا كنت تفعل ؟ .

بهدوء اغتصبه من سيل حزن اكتسحه :

ـ لا شيء .

ـ أتحب أن تلعب ؟ .

واصلاً هذا الدفء بالرغبة حين سمع المذياع قبل الدخول ، قال مرتبكاً :

ـ نلعب معاً . لعبة الأم وابنها .

تقرصه من أنفه بتحبب ، وتسير معه الى السرير طويلة لا يطال رأسها ليرى تفتّق حزن جديد في عينيها . باب الدار يواجههما مفتوح على ظل احدى الشجرتين يقبل الأرض الملساء .

ـ أغلق الباب يا حبيبي وتعال .

تستوي جالسة على طرف السرير . وتنظره يقبل اليها . يقف أمامها قريباً برأس يتوازى مع رأسها . تمتد أصابعها إلى فتحة الثوب وتفكّ ازراره العليا ، ثم تدخل يدها . . وتتوقف لتخاطبه :

ـ هذا سر بيننا . لعبتنا يجب ألاّ تحكيها لأحد والاّ توقفت تماماً .

هز رأسه ، وقد ماتت عيناه على يدها الغائصة في فتحة الثوب . تململت قليلاً وكأنها تريح جلستها ، ثم أخرجت ثديها الايسر لامعاً مكتنزاً يفيض على حجم قبضتها . تقدم الطفل اكثر وهو يرتجف . باعدت بين رجليها وأخذته الى حضنها بلطف . التصق بها الطفل مريحاً خدّه على اللحم المندلق . مسحت على شعره بعض الوقت ، ثم ألقمته الثدي . ترطبّت حلمتها المتوفزة في لعابه وهو يقضم الدائرة اللحمية بحجم فمه .

ـ لا تعضّني . . ها ؟ لا تعضّ .

(عزيزي المستمع . اليك الآن حركة الطائرات في مطار عمّان .

الطائرات المغادرة :

الساعة السادسة . دمشق . عالية .

السادسة وأربعون دقيقة . دمشق ـ لندن . البريطانية .

السابعة وخمس وأربعون دقيقة . بيروت . الشرق الاوسط .

الثامنة وثلاثون دقيقة . أثينا ـ كوبنهاغن . الالمانية .

. . . . .)

للرحلة في عيون النساء الحزانى طعم لا يذوقه إلّا من تعرّف طراوة لحمهنّ في ساعة سكون . تدور الاشياء مع الزمن ليختلط الآتي بصور ما حدث . تنثال الصور الى ان تتوقف كالصدمة عند حد ما ، فترمش العينان للحظة . ينقشع الحضور كالخطف فتهمس للطفل كأنه أحدهم في شريط حلم :

ـ استرح يا حبيبي ان تعبت . . .

وتعود الى صورها مع تشبثه بالثدي . هذا الثدي الملعون الذي بات محور نظرات الرجال ، ومحط الرحال لغزوات أصابعهم القاسية . هكذا يؤ ول الحال حين يغيب الرجل ولا يرجع . يغيب ولا يزرع منه شيئاً يضج في الاحشاء ، ليكون خيمة تصد العيون والاصابع . فيصير الحرام حلالا . وتصير الحريم مبولة للعابرين الى المدينة . . أو ، ـ يتجسّم ما حدث في أمسها ـ في أحسن الأحوال ، أرضاً تجوس في ثناياها اللينة أكف أصحاب العمل وأصابعهم الوسطى :

(. . تنفلت من أمامه لتتمترس خلف احدى آلات الحياكة . تتضرع اليه :

ـ لا تعبث بي . لست من اللواتي تظن .

يدور من حولها كفريسة آن الاجهاز عليها . ترى في وجهه بشاعة عمّان ساعة خلعها لسكانّها عند نهاية النهار . تحوّم ذراعه فتلتصق هي بالحائط . المكان خالٍ إلاّ منهما وبضعة آلات حياكة . تصرخ :

ـ أهذا هو عملك الاضافي لتساعدني ؟!

. . ولا تصحو إلاّ بعد أن يتكوم أسفل بطنها تل صغير من قصاصات قماش مبلل .

وتقرر ألاّ تعود ، فتتسع الشوارع .) .

للعاب الطفل على الثدي لون أبيض يمتزج بعصير الحلمة المتوهجة . ولاختراق حاجز الحرام ، بالمستور ، ارضاء لحريق الجسد المزهر . . طقوس . . قامة الطفل المنحنية على الثدي المعروق تحاصر بفخذين ضخمين . ولشعر رأسه الخشن المهروس على لحم النحر المكشوف فعل الجمر . تلعق جبينه الغارق في العرق . تمرّر لسانها على خدّه . . ثم تحرّكه في أذنه . يزيد الطفل من قضم اللحم بين أسنانه .

ـ عضّ يا حبيبي . عضّ .

وتدفعه اليها .

ـ انه لك وحدك . عليك ان ترضع منه لتكبر . لتصير قوياً ورجلاً بطول الذين في الطرقات . ستتعب كثيراً ، مثلهم ، يا صغيري . ستجوع . ستحرق الشمس بشرتك الناعمة هذه . ستخرج من هذا الحوش لتهبط وتتعرّف على جميع زوايا المدينة . شارع السلط ، طلال ، سقف السيل . ستجد عملاً وستبحث عن آخر حين تفتح لك الشوارع صدرها طريداً . . أو فارّاً . لن تملّ اللعبة . ولكنك ستدخل ألعاباً اخرى مع امثالك الباحثين حاذر ان يكتشفها الآخرون . . انها أخطر من هذه . . وهم أخطر من امك حين تقع في أيديهم . عضّ يا صغيري . . عضّ . عليك ان

تكبر وتقوى . انه لا يخرج إلّا بالضغط ، فاضغط وتعال اليَّ . تعال . تعال . . .

وانكفأ رأس المرأة على قامة الطفل . . وأجهشت بالبكاء .

عمّـــان

٢٧ تموز ٧٩

عـــريـــب . . . وجيـــزيـــل

* يتسلقون الليل على كتف جبل أخرس .
يحملون في عيونهم خوفاً بدائياً . . وشيئاً من فرح حذر .
* يغوصون في ظلمة المدينة عبر ضحكة فاجرة لبطن زلق تشرّب
خليط العرق ، والكحول ، وأحماض العابرين .

* * *

- ١ -

كان اسمه عريب . وكان ينهض باكراً بين تثاؤب أخوات خمس جاء بعدهن ، فزغردت أمه والحارة ، وتألق الفرح في عيني ابيه دمعة اطلقها برجولة . بعد احتباس السماء في وجه الدعوات المحرورة لسنوات ، وسنوات . صرخ عريب صرخته الأولى محتجاً على هواء العالم في رئتيه . . ثم تتالت الصرخات عندما كبر ، احتجاجاً ورفضاً لتركيبة العالم في عينيه .

العذراء منتصبة دائماً في البيت ، وراء صحن مليء بزيت شعلة ، تزاحم في استقامتها تهدّل اطراف الغسيل المنشور ، شتاء ، تحت سقف ينز رطوبة وخشوعاً . يدخل عريب البيت فيهتف في امه حين رآها :

« ـ ركبتاك تجرّحتا والأرض ، رغم ذلك ، ما تزال خشنة ! » .

تلتفت اليه فتصعد عيناها عالياً حتى تطال رأسه . في وجهها سماحة

تمثال الزيت الأزرق ، وعلى زاويتي فمها ارتعاشة الاستنكار العاتب :

« ـ باسم الصليب حولك وحواليك . ستنعم يا عريب بمشيئة الله ووضع مخافته بين العينين . . .

. . . ثم تنهض من سجدتها فيسرع عريب اليها يحتويها بين ذراعيه ، فيسقط كتابان ثقيلان من تحت ابطه . تسأله :

« ـ كتابان جديدان ؟ .

فيجيب :

« ـ نعم . . .

ويضيف :

« ـ من النوع الذي تبغضين .

ترد عليه بحزم وقد أدركت ما عناه :

« ـ أبغض الذين يكتبون للبغضاء بين الناس . . يا عريب . المسيح علّمنا المحبة .

فأجابها بحدّة اكبر من عمره :

« ـ ونحن فهمنا المحبة على انها ادارة الخد الأيسر . أليس كذلك ؟! » .

زاغت من تعليقه ، اذ انها تعرفه عنيداً ، وسألته :

« ـ وهل لك ثمنها ؟ .

فضحك وتناولها برفق آخذاً بمسح ما علق عليها من غبار :

« ـ البركة في (أبي علي) . فقير يصبر على الفقراء .

بغضب :

« ـ بالدين يعني !

« ـ لا تغضبي . حتى نهاية الشهر سأدّخر ما يكفي لتسديد الثمن .

* * *

-٢-

كان اسمه عريباً . وكانت امه تدعى جيزيل . تحب السهرة الهادئة وحولها ذريتها من الفتيات وهو . وأيضاً ، كان يطيب لها ان تحكي قصص القدّيسين أوائل المسيحيين الذين سالت دماؤ هم في الساحات ، فبنى بطرس كنيسته .

ومرة ، في احدى السهرات بعد ان انتهت من رواية قصة المعمدان وسالومي الراقصة ، سألها عريب الصبي :

« ـ من أين جاء اسمك ؟ .

سقط السؤ ال من فمه وظل معلقاً كالجرس ما بين السقف والارض ، ورنينه يكسر الصمت وحياد العيون النعسة . الأصابع الخشنة ، رغم استطالتها ، سارعت بتحريك نواة الزيتون المثبتة في سلسلة المسبحة الرابضة في الحضن . العينان الواسعتان تثبتان على وجه الصبي امداً طويلاً ، فيقوم الأب من على فراشه ، متنبهاً يشاركهم الحلقة آملاً تبديد الانكسار بوجوده . طيّب هو هذا الأب ، وخشيته على بكرِهِ عريب من غضبة الأم للسؤ ال تعادل احتراق سنوات انتظاره .

« ـ ماذا قلت يا عريب ؟ .

قال بريئاً عجباً من جمود أمه :

« ـ سألت أمي من أين جاء اسمها .

حركت الأم يدها الممسكة بالمسبحة مشيرة للأب أن اصمت ، ثم بعد أن أطرقت قليلاً قالت غارزة نظراتها في عينيه :

« ـ من البلاد التي جاؤوا منها .

« ـ من هم ؟ .

بصبر تعرف صاحبته ان لا فكاك من اعطاء الجواب لابنها الذي يكبر يوماً بعد يوم ، شهقت طويلاً ثم قالت :

« ـ اصحاب العيون الزرق والشعر الأصفر . هؤلاء الذين حملوا الصلبان خارج الكنائس . ابناء ريكاردوس قلب الأسد .

« ـ وأين ذهبوا يا أمي ؟ .

سأل الصبي عريب . فأجابت جيزيل بلغة قدّرت انه لن يفهم معناها وهو في هذا العمر :

« ـ ذاب من ذاب . وقتل من قتل . وخرج من صار السيف وجهاً ثانياً للأرض التي أقام عليها .

بهت الجميع من الاجابة . حتى الأم عاد رجع ما قالته الى رأسها بكثير من المفاجأة . استغربت ذلك من نفسها اذ لم تعتد هكذا كلمات :

« السيف وجهاً ثانياً للأرض !! » .

همست لنفسها : « السيف !!! » .

. . . وكبتت مشاعرها المتهيجة لدفق الصور القديمة . تلك الصور حين كانت ما تزال بنتاً يتدلى على صدرها المستوي صليب خشبي صغير . لا فرق بينها وبين الأخريات . . الاّ بالاسم الغريب : جيزيل ! ما معناه ؟ لا أحد من الذين حولها ملكوا الجواب . رفيقاتها (سلمى وخديجة وسعاد) يضحكن منه فتكرهه . تكرهه وتعدو للبيت لتشد ذيل ثوب امها هاتفة :

« ـ ما معنى اسم جيزيل . . ما معناه ؟؟ » .

تضحك الأم من السؤال وتضربها على كتفها مبعدة ايّاها عنها قائلة :

« ـ جيزيل يعني جيزيل يا بنت ، وليس شيئاً آخر ! » .

. . . وهكذا كبر السؤال سنة بعد سنة واصبح لغزاً . والاسم تحول الى غربة . غربة الفتاة وسط رفيقاتها ، وغربتها عن ذاتها . ومذ ذاك النهار قررت جيزيل امراً تنفذه ذات يوم . . .

. . . وكان عريب .

* * *

- ٣ -

في الحب البكر يشتعل الجسد وتتوهج النفس ، فتنصهر الأشياء في كتلة واحدة تراد أن تخطف كلها فجأة . وفي الحب البكر تذوي الفوارق حتى تكاد تراها تشكيلاً يضج بانسجامه . وعريب يمضي ويكبر . يُجبر على ان يضع النظارات الطبية . . فبصره ضعيف ، إلا أنه يميز الجميلات كما يميز كتبه المشتراة .

كان يسميها (أُم الأحكام) ، وكانت تكتب على كراسة الجامعة : حكمت .

« ـ وما معناه ؟ .

يسأل عريب . فتجيب مريحة ذراعيها على سطح طاولة الكافتيريا :

« ـ لا أعلم . انه اسم تركي .

فيمازحها :

« ـ ارث بني عثمان ؟!

فتنهره عالمة بخلفية مزاحه :

« ـ لا تغـظني . . اذهب وهات لنا قهوة تركية .

فيقوم عريب مدنياً رأسه من وجهها ، ويهمس :

« ـ دائماً تركية ؟ . . .

. . . . وتخطف من خده قبلة كاللمحة .

في الحب البكر تنهار السدود وتندغم الأشياء رغماً عن تنافرها . يلتقي عريب بحكمت ولا يسألان عن غدهما ، ولكنهما يدققان في غد الآخرين . الآخرون كثر من حولهما وهما بينهم يعيشان الحياة وكأنها قبضة ورد في كفيهما . يتحاوران ويحاوران . . ثم يرتدّان الى كتبهما الاخرى ليمعنا النظر .

رهيبة هي قبضة الورد هذه ، ولكنها يجب أن تعاش .

هذا ما كانا يرددانه لبعضهما وللآخرين .

- ٤ -

تمسح جيزيل غباراً كان على رأس التمثال الأزرق ، ثم تلتفت لرجلها فجأة وتقول :

« ـ وعريب ! هل نتركه هكذا ؟ .

بوغت الرجل بالقول فاستفسر صادقاً :

« ـ ماذا تقصدين يا امرأة !؟

رأت في عينيه حيرة الرجل الكبير التي لم تخفها ذراعه وهي تبعد العقال

عن ذؤابة (الشماغ) . ضبطت اعصابها مؤكدة لنفسها ان ما ستقول لن يمر على العائلة بسلام . فرتبت كلماتها وبصوت خفيض :

« ـ ولدك سيحرق نفسه يا ابا عريب . . .

الحيرة في عيني الرجل الكبير ، فتكمل :

« ـ عريب يعرف فتاة اسمها حكمت . تدرس معه في الجامعة .

فينطق الرجل مبهوراً وكأن جيزيل ألقت بخبر فجيعة :

« ـ وبعد ؟ أقاما بفعل الخطيئة ؟! .

بحدّة من ينفي عن نفسه تهمة هتفت جيزيل :

« ـ لا لا والعياذ بالله . . .

ثم ببطء اكملت مشددة على لفظ الاسم :

« ـ ولكنني أقول لك أن اسمها حكمت . أفهمت الآن ؟ عريب لا يقدّر الوضع . سيتخرجان هذا العام . سيعمل لمدة سنة ثم يبدأ التفكير بالزواج .

« ـ والفتاة ؟ .

يسأل الأب وهو يطرق بكفه على ركبتيه بعصبية .

« ـ يبدو أنهما متفاهمان . . وهنا المصيبة .

. . . ثم وبنبرة ممطوطة مثل ابتهال مستغيث :

« ـ وكأن هذا لا يكفينا ، يعلنان أمام الجميع انهما متفقان سياسياً .

كالمصعوق :

« ـ ماذا ! السياسة ايضاً ؟! .

« ـ نعم يا أبا عريب . . نعم . . .

ضارعة نحو التمثال فاردة ذراعيها على مداهما هتفت :

« ـ خلّصينا يا أم المخلّص . . . خلصينا !! » .

ـ ٥ ـ

كانت عيناه تدمعان خلف النظارة وتؤلمانه كحرقين . دوار يلفّه فيتحامل على نفسه . ويركض . جموع الطلبة من حوله تتدافع بسرعة نحو الأمام . بات عريب لا يقدر على تمييز الملامح وسط موجات الدخان المبكي . ضجيج وفوضى والنعل الممزق يحثّه على المزيد من الجهد للافلات .

رصاص . اطلاقات بالمئات تزرع الهلع والخوف في سماء الساحات والحرم الجامعي ، ولكنه يسمع صوتها :

« ـ عريب ، اني هنا . اسرع . عريب .

يخفق قلبه ويلهث في صدره حماس وفرح ، فيسرع حين رآها .

« ـ انها ليست لعبة ! » .

يتحقق من ذلك عندما يصله استغاثة وأنين طالب في الخلف . يرشح العرق منه اكثر .

« ـ ولكنها مطالب من حقنا . » .

يصير على بعد امتار من ذراعي حكمت المفتوحتين له بتوتر . تدوي موجة بعيدة من اطلاقات الرصاص فيشعر بوهن في ساقيه ويصرخ في اعماقه :

« ـ كنا مسالمين ولم نستخدم العنف ، ! لم نستخدم العنف .

. . . ويصطدم بصدر حكمت الطري . تتشابك اصابعهما ويبدآن الركض في حين لا يسمعان إلاّ الضجيج وتقطع انفاسهما اللاهثة .

- ٦ -

يقولون انه كان مرتدياً بيجامته قبل أن يأتوا بدقائق . قبّل خدّي أمه جيزيل ، وكان ليلاً ، وقال لها :

« ـ سأصعد الى غرفة السطح لأقرأ بعض الوقت .

باركته بجملها الدينية وصعد . البيت هادئ واخواته في غرفتهن يتهيأن للنوم . رغم الهدوء إلاّ أن توجساً عميقاً كان يعصر قلب جيزيل . الأقاويل التي ملأت المدينة عن الدخان الذي يبكي ، والعصي ، والرصاص ، والخطف من مواقف الباصات ، ، ، كل ذلك لم تزله كلمات عريب لها المطمئنة .

« ـ لا أصدق . . قلب الأم لا يخطئ .

كانت تردد لنفسها ، وتتوجه لتمثال أم المخلّص تتفقد صحن الزيت ، وتتيقن من نور الشعلة .

أبوه كان نائماً حين ارتجّ باب البيت فجأة . لم يفق اذ ان العمر وتعب النهار سحباه في غيبوبة مريحة . اما جيزيل فلقد انتفضت كالملسوعة تاركة السرير صوب الباب . كانت الأصوات تختلط ، في الخارج ، بنباح كلب كأنه عواء ذئب . انقبض قلبها اكثر وهتفت في اعماقها :

« ـ يا أم المخلّص رحمتك .

ازداد الباب ارتجاجاً وعلت الأصوات خلفه بفحيح يقترب درجة غيظ مكظوم :

«ـ افتحوا وإلاّ سنحطم الباب .

دارت الأشياء في رأس جيزيل وأحست بغتة بشيء كالتقيؤ يصعد الى حلقها . اعتراها ضعف في ساقيها ، إلاّ أن الأخوات والأب كانوا قد تحلقوا حولها . بحثت بعينيها عنه فرأته يهرول نحوهم . . .

« ـ ابتعد واهرب يا عريب . . .

صرخت . . .

« ـ سيأخذونك يا ولدي .

لمحت صفرة في وجهه وارتباكاً ، لم يكن يدري كيف يهرب . لا منفذ سوى الباب . . وهم خلفه . . .

« ـ لن يأخذوه ابداً .

اكدت لنفسها وتقدمت لتفتح الباب عازمة على عراك يائس . أطلّت وجوه مهتاجة ، ثم تدافعوا الى الداخل كإعصار . تعثّر أحدهم برفوف الكتب فسقطت على الأرض محدثة ضجة استفزت مزيداً من الخوف .

كان عريب قد صار وسط حلقة من الأخوات والأب . كان كطير اكتملت حلقة حوله . ارادها حلقة حماية له . . فاقتحمتها الوجوه المهتاجة . زعقت جيزيل دافعة اياهم عنه :

« ـ لا لن تأخذوه ! ، ماذا تريدون منه !

ضربها احدهم بكوعه في صدرها وبدأ بجذب عريب . استغاثت الأم بالعذراء التي كانت تبتسم ابتسامتها شبه الساخرة القديمة ، فيما كانت الأخوات يدخلن معركة خاسرة بالأيدي :

« ـ خـلّصينا . . خلّصينا . . .

جسد الأب ينهار على الأرض فتصرخ البنات بجزع . قوة غير عادية تجتاح جيزيل فتكسر الطوق لتضم عريباً اليها وعرق يرشح على وجهها .

« ـ لن تأخذوه . . لن تأخذوه . . لن تأخذوه . . .

أخذت تردد بصوت بدأ يرتفع كعويل ، ثم تحوّل الى نشيج وهي تزيد من ضم عريب اليها . تقدم احدهم بهدوء وقال لها :

« ـ لا تخافي يا خالة . سنعيده بعد حوار قصير معه .

تطلعت اليه بعينين كجمرتين :

«ـ لا . أنتم تكذبون .

ابتسم الرجل وقال :

« ـ اقسم بالعذراء أننا سنعيده . صدّقيني يا خالة .

استدارت عيناها اكثر ، وبدت انها غير مصدّقة ، وقالت :

«ـ أنت ! . . . .

زفر الرجل بنفاد صبر وأصدر أمره :

«ـ خذوه بالقوة.

. . . وانقلبت اشياء البيت فيما علا صراخ وأصوات لكمات وصفعات . هرولت جيزيل الى العذراء إلا ان التمثال كان يتأرجح ويقع على هشيم نظارات عريب حطاماً من (الجبس) المتناثر . انهارت الأم فوقه في اللحظة التي كانت شعلة الزيت تتراقص بعنف على صورة عريب المعلقة على الجدار . . . اذ كانوا يخرجون به من الباب المواجه .

ـ ٧ ـ

يقولون انهم اخذوه . لكنه لم يعد حتى اليوم .

ويقولون انهم حين ادخلوه احدى العربات ، فتحت احدى الجارات نافذتها وبصقت .

ويقولون انه عندما تحركت العربة ، مر رجل تعتعه السكر ، ولما ابصرهم تقيأ .

ويقولون ان العربة حين اختفت ، مزق الليل صوت مؤذن يقول : « الصلاة خير من النوم » .

* * *

* يتسلقون الليل على كتف جبل اخرس .

يحملون في عيونهم خوفاً بدائياً . . وشيئاً من فرح حذر .

* يغوصون في ظلمة المدينة عبر ضحكة فاجرة لبطن زلق تشرّب

خليط العرق ، والكحول ، وأحماض العابرين .

عمّـــان

٢١ أيار ١٩٧٩

مجلة (الطليعة الأدبية) بغداد

١٩٨٠ ـ نشرت مبتورة ـ !

إلى أمي . . .
التي استوعبتني تماماً ،
إلاّ أنها لم توافقني .

طقـــوس

(لا تذهب بعيداً) .

قالت لي ، وأشاحت بوجهها ، مخافة أن تقع عيناي على دمعتها التي بزغت فجأة . لم أستحثها على نسيان الأمر ، أو فهمه بطريقة أخرى . جذوره ضاربة في أحشاء ايامها الجافة . تظنه طالع شـؤم . . أو مردود نزق وحماس أخرق .

« مجنون من يحاول لوي رقبة الماضي » .

قلت محدّثاً نفسي ، وتابعتها وهي تنأى . . .

(أنظر خالك التعس . ألا تتعظ ؟ سياسة ، وامرأة ، ومستقبل موحل . ماذا استفاد ؟ لا شيء . رفاقه القدامى صاروا وتصوروا . . وهو كما هو . وظيفة متواضعة ، رغم ذكائه ، غرفتان بالايجار . . .) .

كان ذلك عند المرة الأولى .

ناولت الرجل الورقة التي معي . أخذها وكتب كلمات قليلة ورقم ، وناولني ايّاها . تقدمت نحو آخر فقام بتفتيشي جيداً . امرني بإخراج ما في جيوبي ، ثم أشار الى اليمين ، فسرت اليه .

المدخل على مرمى عصا . . . فلم أذهب بعيداً .

* * *

حين غادرت البيت ، كانت النسوة ما زلن قليلات . وقفت أختي ترجوني أن لا أثور . أن احتفظ بهدوء اعصابي . شيء كالخوف يشعّ من عينيها ، فابتسمت لها مطمئناً واستدرت . أطلت احدى القريبات وأعطت تلميحاً شاكياً . اصبعها يشير الى قبة قميصي .

« لم أعلّق حول عنقي ربطة سوداء » .

علّقت أختي :

- بربريّ !

ونظرت اليّ بعينين تهمسان : « أرأيت ؟ الأصول أن تفعل الأصول . » .

ففكرت : « أنعلّق الأربطة حول رقابنا لأننا محزونون . . . أم نحن حزينون لأن أربطة تلتف حول رقابنا ؟؟ » .

ألقيت بقدمي الى الشارع فتلقفني جارنا الكوّاء . ضغطني الى صدره وشد على يدي معزّياً . . رددت عليه بحركات من رأسي . . ومضيت . دأبت على توصيتي بأن أدفع له حسابه حال انتهائه من كوي الملابس .

(حالته رقيقة . مغطّاة بقشة . ربما لا يحتمل تأخير تسديد الحساب) .

« كلٌّ وله حساب . كل الحسابات تدفع . . . » .

قررت ذلك وأشرت لأول عربة أجرة ، فوقفت .

* * *

في الممر الطويل الملتوي كنت أسمع صدى خطواتي . ليست سريعة لكنها ليست بطيئة أيضاً . ربما لأنني ألفت المكان . صعدت الدرجات

والتويت مع نهايتها . احتك كتفي بذراع مرافقي الفاره . اعتذرت . ظل صامتاً كأنه لم يسمعني ، أو كأن لا وجود لي . وسعت خطواته فأسرعت خلفه . الممر ما زال طويلاً .

(لا تذهب بعيداً . ستتعب .) .

عند متفرع جديد نبتت في وجهي فتاتان . انحرفت عن طريقهما قليلاً . سمعت من وراء ظهري ضحكة مقهقهة . استغربت ونظرت خلفي . كان الممر قد ابتلع احداهن ، بينما الأخرى تدلف اليه بعجيزتها المضغوطة . تماماً كعجيزة الفتاة التي مررنا بها في طريقي الى هنا . شخر السائق لحظتها ورفع صوت شريط التسجيل . خرق أذني صوت أغنية خليجية ، ـ ذات النمط المفضّل هذه الأيام ـ .

نظرت للسائق فاكتشفت ربطة حول عنقه . كانت حمراء .

« يبدو أنه غير حزين . أمه لم تمت » .

عادت الفتاة بتشكيل عجيزتها لتقفز أمامي . لست شبقاً فاستغربت هذا الالحاح . كما أن وضعي غريب عليه هذا التصور .

(سياسة ، وامرأة ، ومستقبل موحل . ماذا استفاد ؟ وظيفة متواضعة ، رغم ذكائه ، غرفتان بالايجار . سعال في سرير بارد . . وحيد بلا أولاد يرعونه . . وكراريس . . استعاض عن الزوجة بالكراريس . هل تريد ان تذهب بعيداً مثله ؟ ستتعب) .

كان انذاراً ما قالته لي . هذا ما فهمته منها . توقف مرافقي الفاره فجأة أمام باب مغلق . توقفت معه . طرق ودخل بينما يده اليسرى تشير لي بأن أنتظر . فانتظرت .

* * *

ـ لم نرك منذ مدة طويلة .

قال ، وهو يبعد الجريدة المفروشة على مكتبه .

ـ كانت المرة الأخيرة قبل سنة .

قلت.، وقد هدأ كل شيء حولي . اقترب برأسه باعثاً حزناً من عينيه ، وخاطبني بصوت خفيض :

ـ تعزيني بما فقدت . أرجو أن يكون ذلك دافعاً لك لأن . . .

دخل رجل وبيده ابريق قهوة . انتصب وسط الغرفة ناظراً صوب مخاطبي . ابتسم الأخير وأشار نحوي .

ـ قدّم للأخ أولاً .

« لا تذهب بعيداً » .

تناولت الفنجان العربي وبدأت الرشف . لدغت السخونة لساني .

(هزّ أحد المعزّين فنجانه وأعاده . التفت نحو الجمع وأكمل شرح وجهة نظره في الزيارة :

ـ . . . ثم ان ذبح أولادنا بالمجّان في الصحراء منطق غير مقبول . انه المصير .

احتد الآخر :

ـ ولكن ما علمونا اياه في المدارس كان عكس ما تقول.أعني لم تكن القضايا مجّانيّة .

ـ الظروف تغيرت . أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين(*)

ـ نفس مقولتك الفلسفية هذه تؤكد عكس تطبيقك لها . الظروف تتغير .

(*) مقولة للفيلسوف « ديمقريطس »، القصد منها الاشارة الى ديناميكية الحياة وديمومة تغير معطياتها .

ـ لن تتغير بالاتجاه الذي تريده . أنت تحلم .

غضب الآخر وتحفز للرد ، فحاولت التدخل :

ـ نحن . . .)

ـ تحكّم في مصيرك . انها نصيحة . ان ذهبت بعيداً في عنادك ستخسر .

عيناي ثابتتان على فمه . يتسّع كمغارة مظلمة ثم يضيق . ان ضاق بدا بدونه . وان اتسّع تدحرج منه شريط كأنه تحذيرات أمي . خدر في رأسي . مرارة القهوة في لساني وحلقي . يغيب صوته . يتلاشى كجزر . يعود . المد .

ـ جدّد حياتك . تكلم . نحن نؤجل تسديد الحساب ، لكننا لا ننساه .

الخدر يقوى . الخدر في رأسي . تشهق المغارة بظلمتها :

ـ ستدمر نفسك . اتعظ بالآخرين : تصفية الحساب ضرورية .

« غير معقول ! غير معقول . . . » .

ـ أمسموح أن أدخّن ؟ .

تنفتح المغارة . المد . أسمعه :

ـ تفضل .

يغوص رأسه في الدخان . يظهر . وجه أمي يظهر . تتصلب عيناي فيه . يتكلم . يصطخب المد . أسمعه يتكسر على صخرة . ينتحر عليها :

ـ ستندم انها نصيحة .

يتضح وجه أمي . يطل من المغارة . يشع من خلل الدخان .

(انظر خالك التعس . رفاقه القدامى صاروا وتصوروا . غرفتان بالايجار . سعال في سرير بارد . . ظل فقيراً ، ظل فقيراً . اتعظّ واقبر الفقر . . .) .

ـ تفتح صفحة جديدة . ندفن الماضي . نردمه .

(تراخت الحبال واستقر التابوت في الحفرة . تعالت الأصوات بالصلاة . مدوا أيديهم وملؤوها بحفنة تراب . نثروها على التابوت . انَّ الخشب تحت وقع التراب والحجارة . أمي داخل الخشب . لم أفعل مثلهم . لم أمد يدي بحفنة لأرميها . لم أتل صلاتهم وهم ينثرون . لم أردم . لم أردم . . .) .

* * *

قوي المد وتحول الى موجة . موجات . هدر . أرغى وأزبد . كثرت موجاته المنتحرة . تشنّج وضرب سطح المكتب . انفلقت المغارة على اتساعها :

ـ أصح . قلت لك ستندم .

نظرت اليه فوجدته وحيداً . أمي لم تكن معه . انقطع شريطها . وجهه غاطس في ضياء أصفر . الشمس خلف رأسه . دقائق الغبار الظاهرة تشكّل حاجزاً بيني وبينه . سلام تسرّب الى أعماقي فهدأت . لم أر عينيه ، ولكني تبينت ربطة مرقطة وهي تحيط بعنقه .

عمّـــان

٢٥ كانون ثاني ٧٨

ملحق (الثورة)بغداد

١٩٧٩

الى الولد « قاسم »
. . . وأيام الجوع .

تحـــوّل

« ـ يا ولد يا حسين . . .

ـ نعم يا امّ ؟ .

ـ لا تتأخر وحاذر من السيارات . وكن بعيداً عنها واقطع الشارع باحتراس .

وبدأ ركضه الى الزقاق .

ـ حسين .

ملتفتاً نحوها توقف مستحثاً ايّاها على قول ما تريد ليتابع الركض .

ـ ايّاك أن تضيع النقود وإلاّ سأقضم رقبتك .

أن تلعب هنا أو هناك ممنوع . . .

كانت تطل عليه بقامتها القصيرة الممتلئة من عتمة باب متقشّر ، وقد عمل الغطاء من رأسها دائرة حنطية اللون .

هتف محتّجاً كأنما أهين :

ـ لا تخافي يا امه . انا رجل لا ألعب .

. . . وأكمل خروجه من الزقاق ، ولكن بخطى ثقيلة هذه المرة .

* * *

انفرشت المدينة امام عيني حسين مساحة على مد البصر ، ومن جوانب عديدة منها تطاولت مآذن باهتة .

« ليست كالتي يرسل أبي صورها من السفر . مآذن أبي ملوّنة جميلة . » .

كان كلما حنّ الى والده ، أو عاد من جولة خاسرة ضد أولاد الحارة ، يتجه اليها . يعتلي كرسي القش ليأخذ بيده الصغيرة البطاقة من على مكتبة اخيه . يتفرس فيها فيختلط حزن في نفسه مع شعور انه بلا سند .

هذا ما تنامى في نفس حسين حين خرج الى الاسفلت ، تاركاً خلفه ازقة متربة . وحده بلا سند ماضياً نحو المدينة الكبيرة .

في جيب سرواله القصير انثنت ورقة النقود الرطبة.

« ايّاك أن تضيعها . اشترِ اللحم وتعال فوراً . » .

وتغوص أصابعه داخل الجيب لتقبض على الورقة . طرية مضمخة بالعرق كانت حين سلّمها أخوه من محفظته وناولها للأم بعد العشاء .

«ـ لينزل حسين غداً ويشتر لحمة .

وقتها توقفت الأم عن سكب الشاي وتطلعت الى ابنها الكبير . اما حسين فقد لكز اخته بساقه وهشّ في وجهها .

« ـ لحمة ! هل سنأكل لحمة ! هل سنشويها فتفوح رائحتها في الحارة ؟! .

. . . وكأنما فطن الى تصوّر غاب عنه ، فجعل يتماوج مقلداً الدراويش مردداً :

« ـ عمو أبو حاتم سيشم . . خالتي ام حاتم ستغتاظ . . عمو أبو حاتم سيشم . . خالتي ستغتاظ . . . عمو أبو حاتم . . .

فصرخت فيه امه :

« ـ اسكت يا ولد ولا تكن وقحاً . . .

ثم الى ابنها الكبير بلهجة هادئة فيها التشكي :

« ـ أرأيت ؟ هذه نتيجة تكرار الحكاية على مسمع الصغير . غداً سيكبر ويخرج على العائلة .

قال الابن :

هم الذين خرجوا . انفتحت الحال في وجوههم فأداروا لنا ظهورهم » .

وقبل أن يسمع جوابها قام رافعاً صوته :

« ـ حسين لا يبصر إلّا ما يراه . . . ونحن لا نقول إلّا ما يحدث » .

وقتها لعنت الأم ، في سرها ، الزمن وأحكام ابنها القاطعة . انها تعرف ان زوجها لم يسافر إلّا بعد أن ضاقت عليه الحال ، وابتعد اهله عنه . انها تذكر كلماته في الليلة الأخيرة . لم ينم وظل يكرر لها :

« ـ لا تأمنيهم فقد ـ خرخشت ـ في جيوبهم النقود .

سأرسل لكم حال عثوري على عمل . ابنك الكبير خرج الى الحياة ، ولكنه يفك الخط ، وحسين يجب ان يتعلم . عليه ان يتحصن ضد هذا الزمن الوحش .

* * *

وسط المارة على الأصفة كان حسين يسير قفزاً . فرح هو لأنه اليوم الأول لعطلته الصيفية ، ولأن أخاه سيجد له عملاً بعد يومين .

« ـ أنا رجل وسأدخل نقوداً الى البيت . . يا امه » .

بزهو كبير قال ذلك قبل أن يندس لصق اخته لينام . وحين أطفأت أمه النور همس لأخته مبحلقاً في الظلام :

« ـ أليس كذلك ؟ .

. . . ونام وأصابعها تعبث بشعر رأسه .

كان على حسين ان يعبر الشارع لينتقل الى الرصيف الآخر . . فأخذ حذره . وحين هم بالركض تعثّر بجسم رجل فسقط على وجهه . ونظر اليه متوقعاً ان يسمع كلمة اعتذار ، إلاّ أن الرجل تابع سيره وهو يشتم الأمهات اللواتي يتركن اولادهن يسرحون في الشوارع . استغرب حسين وتمتم :

ـ المعلمة قالت لنا أن نعتذر عندما نؤذي الآخرين !!!

نهض متوجعاً وهو يضغط على ركبته المكشوفة . أحسّها ساخنة فرفع يده عنها مكتشفاً ان كفه تلطخت بدم . حرنت في عينيه دمعة وخشي ان تتهمه أمه باللعب .

« ـ اللعب هنا وهناك ممنوع .

ـ أنا رجل لا ألعب . » .

. . . وحثّ خطاه الى (جسر الحمّام)[1] اذ كاد يبلغه .

* * *

تجاوز حسين الشارع الضيق وانعطف نحو الطريق العام . زكمت انفه رائحة الفلافل فتشهّاها . من هنا يجلب اخوه ساندويشات الفلافل مع البطاطا المقلية . تباطأت خطواته إلاّ أنه سرعان ما تنبّه :

« ـ سآكل لحمة . لحمة مشويّة » .

---

(١) جسر الحمّام : شارع شعبي وسط عمّان القديمة .

. . . ودخل اول حانوت لجزّار .

وقف وراء امرأة عجوز ترتدي سواداً . كانت تشير الى الجزار الضخم وتقول له بصوت آمر :

ـ اقطع من فوق . نعم من هنا . لا أريد من ذاك الجنب .

نظرات حسين تتأرجح مع تأرجح الذبيحة المعلقة . سكين الجزار تغور في اللحم وتشرّحه . قطة في الزاوية تلوك بقايا لحم مدماة . اصابع حسين تضغط على ركبته الجريحة بينما ذيل قطة اخرى يلامس ساقه . رغب في اخذها الى صدره إلاّ أن صوت الجزار منعه من التنفيذ .

ـ كم كيلو تريد يا ولد ؟ .

ـ نصف كيلو .

ـ نصف كيلو ماذا ؟ .

تلعثم حسين اذ لم يفقه معنى السؤال ، وأسرعت أصابعه لتعبث بشعره . زفر الجزار بضيق مستعيذاً بالله من هذا اليوم . فانتبهت العجوز وسألت حسين :

ـ شرحات أم مفرومة يا حبيبي ؟ .

فتذكر حسين توصيات امه .

ـ ربع شرحات وربع مفرومة .

ـ ماذا !!

صاح الجزار مبهوتاً ، لكن نظرات العجوز أخرسته فاستدار نحو الذبيحة . شعور حسين بأنه وحيد بلا سند جعله يتقوقع متراجعاً في الزاوية . عاودت القطة تمسحها بساقه فتجرأ وأخذها الى صدره مربتاً على ظهرها . سكين الجزار وهي تقطع شريحة اللحم الصغيرة اثارت حواس

حسين ، فراحت عيناه تتابع الحركة . والسكين تصعد وتهبط بخفة على اللحم وسطح الخشب الدامي . ماءت القطة . وانتصبت بظهر متقنطر على ذراعه .

ـ ها هي . خذ .

تقدم حسين من الجزار وهو يزيح ذيل القطة المراوح على وجهه . اصدرت مواء وزحفت تحت الثلاجة الكبيرة .

ـ ما هذا !

صرخ الجزار بغضب .

ـ ثمن اللحم ؟!

أجاب حسين حائراً وتلفت نحو العجوز فلم يرها . حركة الجزار وهو يريح ذراعه المشعرة على كتف الولد ألجمته تماماً . قشعريرة سرت في بدنه حين اقترب وجه الجزار منه قائلاً :

ـ قل لأمك ان هذا لا يكفي .

ـ لا يكفي !

تمتم حسين شاكاً . فأجابه الجزار :

ـ كان يكفي قبل ثلاثة شهور .

دارت الدنيا في عيني حسين ولفة اللحم مركزها .

« ـ هذا يعني ان لا لحم لنا . لن تشم الحارة رائحة الشواء . لن تغتاظ خالتي أم حاتم . سنظل نأكل الكوسى بالارز فقط . امي تنتظرني احمل لها اللحم . امي ستغضب . . . ربما تبكي . . وأنا لا احب ان اراها تبكي . . . » .

لفة اللحم على قطعة الخشب وعينا حسين ترمقانها وكأنها وعد مؤجل .

« ـ الطريق الى البيت طويل . لا يهم ، فأنا أسرع أولاد الحارة . . . » .

ذراع الجزار . تثقل على الكتف النحيل ، وصوته يجيء من قعر بئر :

ـ قبل ثلاثة شهور . . ثلاثة شهور . . ثلاثة شهور . . .

ينزلق الجسد النحيل من تحت الذراع ليخطف اللفة بسرعة . يؤخذ الجزار بالحركة فيدور حول نفسه بفوضى . حسين يقفز الى الشارع وفي اثره القطة وصياح الجزار :

ـ حرامي . حرامي . حرامي . . .

. . . وتتلقفه جموع الناس وعيونها المندهشة ، فيغوص حسين في ثناياها .

عمّـــان
١٣ آذار ١٩٧٩
جريدة (الأخبار) عمّان
١٩٧٩

ما لـم تورده جـرائـد الجمعـة

تمهيد :

ما تزال المدينة تتململ تحت الفراش ، وأنفاسها متشربة رائحة النوم . رذاذ واهن يتساقط عليها فيتعاظم الاغراء بالتثاؤب . عربة متوسطة الحجم تنزلق عبر الشوارع المبللة متوجهة الى وسط المدينة القديم . تلقي برزم ضخمة على طرف الشارع وتنطلق الى جهة أخرى .

تحزّ المدية الحبل وتقطع ، فتنفرش رزم جرائد الجمعة على الأرض . يفرزها الموزع الصغير ويبدأ بتقسيمها على الأولاد حوله . يصيح بهم :

ـ زبائن البيوت أولاً .

. . . ويتفرق الأولاد في الشوارع الجانبية . تقف عربة وينزل سائقها . يتناول جريدة ويدلف الى المطعم المجاور . يفتح صفحاتها ويمر على العناوين الرئيسية . تطالعه صفحة كاملة محلاّة بصورة كبيرة وأشكال خطوط مختلفة . يتأملها :

« مشروع سياحي ضخم بالتعاون بين شركة (انترناشيونال) العالمية و (الوطن) للتعهدات والمقاولات المحلية » .

تحت الصورة تنتظم الكلمات :

« ممثل الشركة العالمية في الشرق الأوسط يوقع اتفاقية المشروع وبجانبه السيد جهاد منصور رئيس (الوطن للتعهدات والمقاولات) .

. . . يصعد السائق بعينيه فيقرأ أسفل العنوان الكبير :

« ملاحظة / مشروعنا مساهمة تبغي الدفع بخطة التنمية الوطنية . » .

ثم تسود الصفحة بتفاصيل مسهبة حول المشروع . يقلب السائق الصفحة متمتماً :

« اعلان مدفوع الأجر . . . » .

- ١ -

المرئيات مدى مغبر ، والسماء مغلقة بالقتامة . نزل من الحافلة وسار على الطوار بمحاذاة هدفه . مبكر هو هذا الصباح . . والموقع أخرس ميت . الصفير الترابي يترى ، فترمش الجفون لتستر العينين من موجة ترابية آتية . تضغط الأصابع على الرأس ، ليهبط طرف اللثام فوق الجبين .

ينتصب جسم عملاق لرافعة برتقالية تبقر الفضاء . ذراعها يمتد بعرض الموقع الساكن كصليب ناقص عند قبر هائل . من بعيد تومض لمعة خضراء صغيرة ، فينداح موكب من العربات على الاسفلت عبر الضباب الغباري . الموكب يزحف ببطء تلحظه العينان فيرتعش الجسد بغتة .

- ٢ -

مذاق التراب الدقيق جاف على اللسان المتخشب . ذراته تطحن تحت الأسنان رغم إحكام اللثمة فوق الفم .

« ما عليك كثير . أرنا الهمّة » .

. . . وابتعد مراقب الموقع بظهره ليهبط الى الجوف . التنهيدة تضيع مع صفع الريح للصدر . يتحرك الجسد نحو الآلة الرجراجة . مركونة أسفل تل من الصخور المقتلعة . تمور الحركة في الجوف المترب كهوّة . تهدر خلاّطة للاسمنت ضخمة في الزاوية المقابلة . تزحف الأجساد على الأساسات الاسمنتية . ينحني أمام عربة مولد الكهرباء . . يعالجه تهيئة للعمل . يعانده عطل فيه . يتوتر .

« ليس هذا وقتك » .

وقبل أن يغوص المراقب في الجوف .

« . . . سيأتي مالك المشروع اليوم مع المتعهد . أرنا النشاط » .

ظهر الخلّاطة المخطط الزلق يدور . تدور العينان معه . تختلط فيهما الألوان . يختلط الماء بالاسمنت بالتراب .

الذراع تشد الحبل الكهربائي بقوة ، فيتلوى زاحفاً بين ركام الصخور المهشمة . تحيط الكفّان الخشنتان بالمقبض الأفقي الغليظ . وترفعان الآلة . يستقيم سيفها برأسه على صخرة .

« يستقيم الجسد المتوثب اللهف . . يركض الى حيث الرجل . . يقفز صوب اتجاه اصبعه . . . ينحشر بين الرجال . . . آخرون يستندون الى جدار المسجد . . لا أمل ، طفرة اسمنت ثم سكون ، لا عمل . . . » .

ينحني الظهر وينكفئ باندفاع الكتفين الى الآلة ، فيزعق السيف ناغلاً في الصخر . تخطف الجسد زوبعة غبار ، وهدير ، وارتجاج .

- ٣ -

يتحرك ذراع الرافعة العملاقة ليشطر سماء الطريق الاسفلتي . تنطفئ الاشارة البرتقالية فيتقدم موكب عربات جديد . يهتزّ منظوره في عيني الرجل المرتج . السيف يثقب ويدور . الرجل يرتج ويضغط . جرافة تدب وتهدر . الموقع ينز غباراً وضجيجاً . تتقدم الجرافة تنبش الأرض . تعمل فيها أنيابها . تنهشها وتأكلها . . .

« يغطي بجسده لحم امرأته ويغوص في عرقها . يحمحم فوقها . . يتشنج . . . » . تربض عليها ثم تضغط . تذهب عميقاً في التربة وتشيلها . تبدأ في التراجع . . . « يتراجع عن لحمها ويستند الى الجدار . ما زالت أنفاسه لهاثاً . ينتفض العكر في شرايينه .

ـ أهي تسلية الفقير في تعطله ؟!

تنقلب الى ناحيته وتواجهه . تبش في وجهه ضارعة :

ـ رزقنا آتٍ مع المتحرك هنا . لا تكفر برحمة ربك .

تتحسس كفه بطنها بحنو . يتلمس انتفاخه اللدن المعروق ويهبط فجأة برأسه عليه . يمرّغه بعصبية صامتة . تمتزج رائحة العرق المتفصد بجديد انسل من العينين . يهتف مخنوقاً بينما أظافره تنغرس في جلدة كفه اليابسة :

ـ ولكن متى ؟ متى ؟ . » .

يرتفع صراخ المراقب فتلوب الأجساد على الأساسات . تتعامل مع قضبان الحديد الخرسانية . تتلوى معها . تنفلت عربة من الموكب نحو الموقع . يجأر المراقب . تنزلق على المنحدر الى الجوف وتستقر فيه .

« استقرت الدنانير الأولى في راحته ، فأطبقت أصابعه عليها . لم تدفأ في قبضته . تلاشت بعد ساعات .

ـ هذا ، وذلك ، وذاك . لم يعد لهم في ذمتي شيء يا امرأة .

. . . ولم يعد من الدنانير شيء . » .

خرج رجلان من العربة ، فهرول المراقب والمهندسون . كفّت الأجساد عن العمل فانفردت الآلات بالحركة . السيف يفتت ، والجرافة تنهش ، والخلاطة تدور . وذراع الرافعة يصفع الهواء بصمت . بتثاقل يخطو الرجلان بين الكتل الاسمنتية . يلتفتان برأسيهما بينما أيدي المهندسين تشير الى الزوايا والدشم . رأس المراقب يهتز موافقاً عدة مرات .

« اليوم خميس . الدفعة الجديدة . اليوم سشرب الشباب على حسابي . سأفي بكوب الشاي وبنفس أرجيلة أيضاً » .

. . وينحني الجسد أكثر على الآلة . ويحتويها . ينضغط عليها كأنما يبغي الالتحام بها .

« ما عليك كثير . أرنا النشاط . الهمّة » .

تصعق الجسد رجفات أشد . يتذبذب الرأس فتهتز الأشياء في العينين . يوغل السيف تفتيتاً في قلب الصخر . تعنف دوراته المحمومة ويلتهب . يتحشرج نصله مخنوقاً فيخفف الرجل من استقامته . يزعق من جديد بميلان أكثر . وتيرة التوتر تتصاعد «اللعنة . الثقب اتسّع كثيراً ! » .

يلتفت حوله ويلتقط شظية حجر . يدسّها في الثقب فينحشر النصل . تسقط قطرات عرق على تراب الموقع ، فيمتصها ويكسوها . يضغط على الآلة فيئز السيف وتنقذف الشظية . تضيع الصرخة في الضجيج . تلتصق الكفّان بالوجه . تنهش الجرافة الجوف ويترنح الجسد . تبتعد احدى الكفين عن الوجه . موجة غبار تصفع الدم عليها . تنكسر الرؤية وتحمر . الرجلان يتنقلان ببطء . المراقب يوافق برأسه . قاعدة الرافعة العملاقة مثقلة بكتل اسمنتية . ينتفض الرأس بعصبية فيتطاير خيط دم على العين الأخرى . المراقب يبتسم ويوافق برأسه . قاعدة الرافعة يخطّها الدم . يتهاوى الجسد على صخوره المهشمة ، ويرتفع الرأس الى أعلى .

المرئيات مدى مُحمّر ، والسماء مغلقة لم تنز رذاذها بعد .

عمّـــان

٢٦ آذار ٧٨

ملحق (الأخبار) الثقافي / عمّان

١٩٧٩

صفحة

الإهـــداء	٥
١ ـ أيوب . . . يا أيوب .	٧
٢ ـ ثريا تنتظر . . .	
ثريا تحلم . . .	١٦
٣ ـ خط « دالي » الأحمر	٢٥
٤ ـ العباءات التي أضاءت الصمت	٣٥
٥ ـ طيور عمّان تحلق منخفضة	٤٢
٦ ـ موت « مطيع عبد الواحد »	٥٣
٧ ـ اللعبة .	٦١
٨ ـ عريب . . وجيزيل	٦٨
٩ ـ طقوس	٨٠
١٠ ـ تحـوّل	٨٦
١١ ـ ما لم تورده جرائد الجمعة	٩٣

الغلاف: عماد حليم

طيور عمان تحلق منخفضة

علت صرخة البدوي : هجووووم . وبعدها تتالت الأصوات . أطلق قذيفة الهاون . . هيا . أخ . أصابتني شظية . اختبىء يا « ابراهيم » . ها هي « نسرين » توجه بندقيتها نحوك . « تيتي » يا خائنة . اكتشمتك . أنت في الخندق الآخر ! سهل رشوة المتذبذبين . لا . البدوي لا يخون . البدوي أصيل عند كلمته . « ابراهيم » احترس . انهم يطبقون عليك من طرفي النهر . إنزع الى الصحراء فهي كفيلة بحمايتك . لا بأس . مكانك آمن الآن في الأزقة الموحلة .

* * *

يداه تحتضنان ركبته الجريحة ، وقد تمزق بنطاله . أفلت ضحكة عصبية خلال ألمه :

ـ لا شيء . جرح بسيط . هل انتهت المعركة ؟

ابتسمت المرأة ، وقالت وقد انحنت على الركبة :

ـ انتهت ولم تبدأ بعد . كلنا بخير . كلنا خندق واحد .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً: موكيالي ـ بيروت ـ ص.ب: ٥٤٦٠ / ١١ بيروت